بدر محمود الدمهوجي
مدرس بالأزهر الشريف

التاريخ بين الإنسان والشيطان

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

الطبعـة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

إن العداوة بين الإنسان والشيطان، ليست عداوة بالمعنى التقليدى أو الشخصى للعداوة بل هى عداوة إيمانية، فهى ليست عداوة بيننا وبينه لأنه ظلمنا فقط أو اعتدى علينا بغير حق فقط، ولكن هناك معنى أعمق من ذلك بكثير آلا وهو الاندهاش بل والارتياع والارتعاش الذى يملك علينا أفئدتنا ومشاعرنا حينما نستحضر ذلك المشهد الرهيب فى بداية الخلق. حيث نرى اعتراض وكبرياء مخلوق ضئيل فقير حقير على رب العالمين! وأين؟ هناك فى الملأ الأعلى وفى شبه المكاشفة والحضور، حيث يعاين اللعين الملائكة بوضاءتهم ونورانيتهم، ويرى النيران ودار السلام ويستحضر عظمة وجلال وجبروت الخلاق العليم رب الأنام.. هنا فى هذا المقام يتم الإعتراض والكبرياء، ولا شك أنها الضئالة والضحالة، ليس بمعناهما التقليدى أيضا لأنه فى هذا المقام: الكل ضئيل. الكل صغير. الكل فقير. الكل عبد. الكل فرد ﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا**﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

ولكنها الضئالة بمعناها الأسوأ حيث تعنى السفالة والحقارة والخسة والندالة ولو أردنا أن نستحضر كل معانى الصغار وكل قواميس الاحتقار ما استطعنا أن نوفّى هذا اللا شىء ما يستحقه. ومن هنا يندلع العداء ويلمع ويتوهج ويضطرم. لأنه بغض فى الله. أى أننا نبغضه لسوء أدبه وفعله وخبث طويته. مع من؟ مع الله رب العالمين! وأين؟ فى الملأ الأعلى! ومتى؟ فى لحظة وآن الحضور وليس الغفلة. مما يظهر ويجلى ويكشف حقيقة الجحود والنكران والخسة والكفران واستحقاق الصغار والخسران والذم والدحر فى الدنيا. والبطشة الكبرى يوم القيامة.

وهو أيضا ما يستنهضنا ويستثيرنا نحو إظهار حقيقتنا الطيبة التى خلقها رب العالمين فينا وعلمها منا حين قال للملائكة: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٣٠].

آلا وهى العبودية الكاملة والمعرفة الشاملة والحب العميق والفقر المبين لخالقنا العظيم. وذلك بترك كل ما عداه والزهد فى كل ما سواه. والإستعلاء عن الشهوات، وكل ما نهى عنه، وحب كل ما ومن أحبه، والتقرب إليه تعالى بما افترضه. وبغض كل من خرج عن طاعته وحاد عن عبادته، وبذل الغالى والنفيس فى سبيل نصرته، حتى إذا ما انفرط منا العقد ووقعنا فى معصيته وحقق فينا اللعين موعده، تذكرنا وعلمنا صفات جماله سبحانه السارية فى الوجود، فلذنا بالرحيم واستجرنا بالكريم ليبعث لنا فيوضات غفرانه. فإذا بأقدامنا على طريق الخير والحق تمضى حتى يأتينا اليقين.

ولا ريب أن هذه القضية.. قضية الصراع والعداوة مع رمز الشر الباطن تلفت أنظارنا إلى قضية الصراع مع رمز الشر الظاهر آلا وهم الصهاينة وأشرار اليهود الذين يرتكبون ضدنا كل الشرور والآثام من قتل وتشريد وتجريف وتجويع وسجن بشكل لم يعرف التاريخ له مثيل ومستعينة فى ذلك بأشرار الغرب الذين يقدمون المصالح الشخصية والإنتخابية والعدائية على حقوق الخلق ومصالح الشعوب. وذلك حتى بعث الله عليهم عباداً له أولى بأس شديد من أبناء مصر الأبرار الذين لم يبالوا على أى جنب كان فى الله مصرعهم حتى أذاقوهم وبال أمرهم وجعلوا عاقبة أمرهم خسرا. فى أول الوعدين ﴿ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً** ﴾ [الإسراء: ٥] وذلك فى العاشر من رمضان السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣م.

ثم رد لهم الكرة وأمدهم بالأموال والبنين ليختبرهم ويختبرنا. فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها.. فعلينا أن نعمل جاهدين وننمى قدراتنا. بل ونسابق الزمن للنهوض واللحاق بركب التقدم والحضارة. حتى تجنى أجيالنا القادمة الثمار ﴿ **إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً** ﴾.
[الإسراء:٧]

أرأيت إذ وُلد السلام	**فنعوه من قبل الفطام**
وضعته أوربا لنا	**ياليت أوربا عقام**
طفل برىء ذاق من	**يد أمه كأس الحِمام**

لهفى عليه ممزق الـ	**أوصال منتشر العظام**
عصفت به ريح الوغى	**عصفا وغطاه القتام**
فمضى شهيداً ما له	**قبر يزار ولا مقام**
ليس السلام بسائد	**ما دام فى الدنيا حطام**

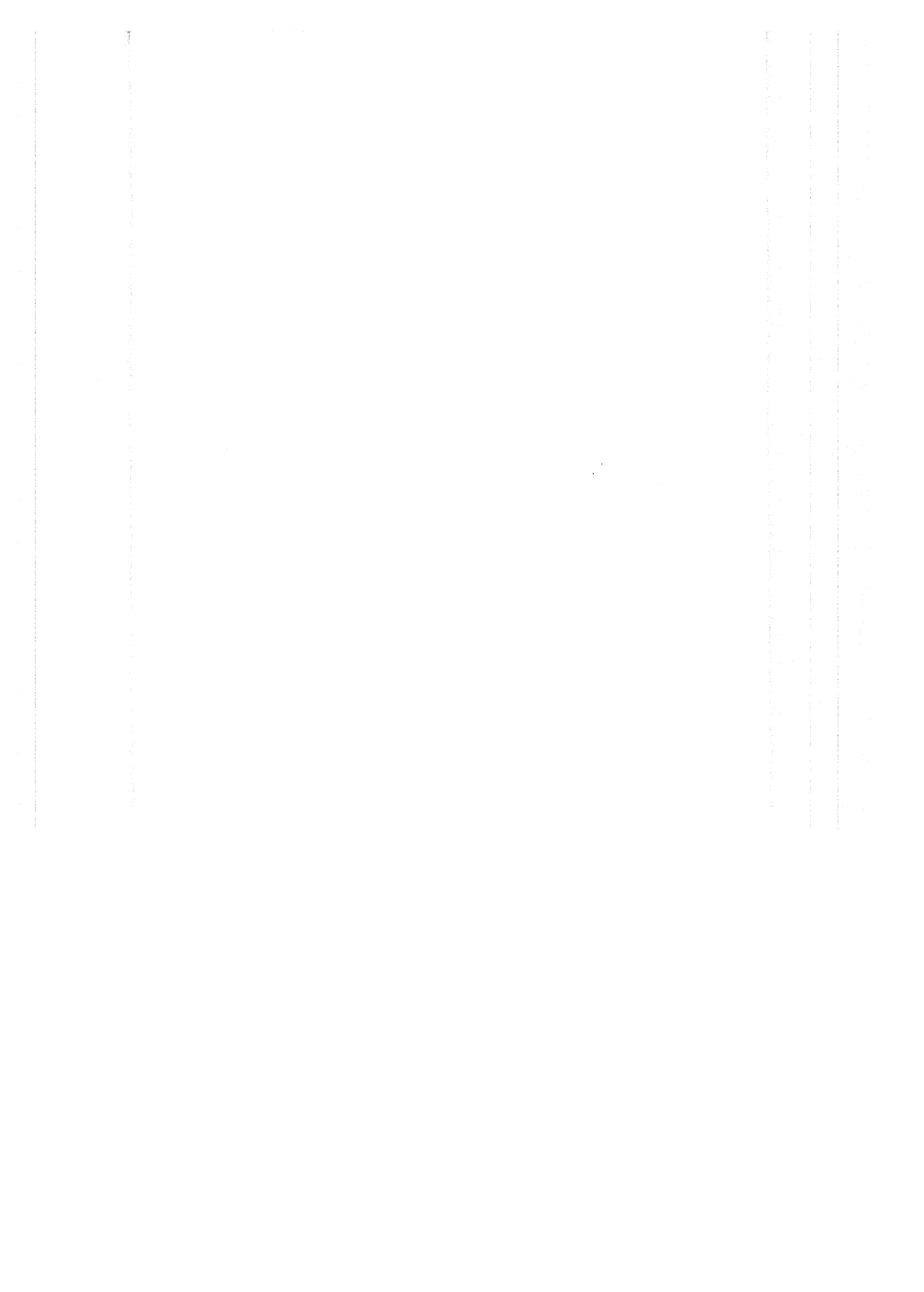
وكذلك مع كل الشرور والآثام التى تقف روح الشيطان من ورائها تعضدها وتدفعها نحو الإنتشار. وذلك حتى تصبح لحياتنا قيمة. ونصبح أصحاب قضية وحملة رسالة فنتعالى عن الغايات الهابطة الدنيا إلى الغايات السامية العليا، وهو ما يختلف كل الاختلاف عما نرى عليه الكثير من شبابنا لا سيما المترفين الأغنياء. الذين لا هم لهم سوى الوصول إلى الشهرة والمال والرفاهية دون عناء أو كفاح يذكر. ولا يشغلون أنفسهم سوى بالغناء والتمثيل. أما التضحية فى سبيل الدين والوطن والمحاولة الجادة نحو إعلاء كلمة الدين وشأن الوطن فواد آخر بعيد كل البعد عن غاياتهم:

أمة قد فت فى ساعدها	**بغضها الأهل وحب الغربا**
تعشق الألقاب فى غير العلا	**وتفتدى بالنفوس الرتبا**
وتراها والأمور تستهدفها	**تعشق اللهو وتهوى الطربا**
لا تبالى ألعب القوم بها	**أم بها صرف الليالى لعبا**

والله ولى التوفيق

بدر محمود الدمهوجى

سمادون – أشمون – منوفية



الفصل الأول

بداية الخلق

وينقسم إلى مباحث:

- مشهد البداية.
- آيات الكون تشهد بجدية الرسالة.
- الإعلام بخلق آدم عليه السلام.
- خلق آدم من طين.
- سجود الملائكة لآدم.
- من هو إبليس.
- الشيطان يرفض السجود.
- اسكن أنت وزوجك الجنة.
- مدخل الشيطان للنفس.
- توبة الله على آدم عليه السلام.
- لماذا غفر الله لآدم.
- لكل إنسان شيطان.

● مشـهد البـداية:

في مشهد علوى مهيب يكشف الحق تبارك وتعالى عن إرادته فى خلق كائن أودع فيه من الأسرار والعطاءات والمكرمات ما يؤهله لأن يكون خليفته فى الأرض يعمرها على منهجه ويحقق له سبحانه العبادة على نهج جديد لم يسبقه إليه أحد من الكائنات، ولا شك أن إعلام الحق تبارك وتعالى للملائكة عن إيجاد هذا المخلوق بهذه الصورة يوضح المكانة الفريدة التى أرادها الله تعالى له. كما تلقى الضوء عن المهمة الضخمة التى أناطها وأوكلها الحق تعالى به. آلا وهى العبادة بصفة الحب والاختيار مع ما يكتنفها من الجهاد الشاق الطويل والكفاح المضنى العسير. سواء أكان ذلك الجهاد ضد شهوات النفس، أو صوارف الهوى، أو ضد ذلك العدو اللدود. الذى يقف بالمرصاد لكل محاولة جادة نحوها أو إليها. وعلى قدر العقبات التى تكتنف الطريق، وعلى قدر الجهد الذى يبذل والتضحيات التى تتم تكون القيمة ويكمن المعنى.

فلا شك أن التعظيم والتمجيد والتكبير والتسبيح تتوقف قيمته على أشياء متعددة؛ أهمها قيمة من يقوم به. فإذا قام به صاحب قيمة أو مرتبة أو عقل فإنه يدل على عظمة وجلال المراد به، وإذا قام به ضعيف العقل مغفول الجانب أو محطوط القدر. فإنه لا يؤدى غرضه ولا يُعبأ به. مما يوضح قيمة المخلوق الذى أناط الله تعالى به تسبيحه وتقديسه وتعظيمه وإجلاله.. لأنه ولله المثل الأعلى: لو مدح إنسان من عامة الناس زعيما من الزعماء أو رئيسا من الرؤساء فإنه فى العادة لا يعتد به ولا يقيم المجتمع لذلك وزنا. ولكن إذا مدحه ند أو قرين من الزعماء أو الرؤساء. فإن ذلك يعد مزية وشرفا يتفاخر به الناس وتردده وسائل الإعلام.. ولكن هل هناك مخلوق يستحق أن يعظم الله تعالى فيقبل منه أو أن يسبحه فيقبل منه أو أن يمجده فيقبل منه؟ والكل مخلوقاته وعبيده! بالطبع لا. ولكنها رحمة الله وفضله وكرمه وقدرته أن يخلق ويوجد من يعبده ويعظمه ويمجده فيقبل منه سبحانه وتعالى ويجعل لعبادته وزنا وهو مخلوق بسيط من مخلوقاته التى لا تعد ولا تحصى.

وعلى قدر العقبات والتضحيات والمنحنيات التى تواجه من يقوم بتلك المهمة. تكون القيمة ويتضح المعنى وتعظم الدرجة. وإذا أراد الله شيئا سبب له أسبابه ولا يظلم ربك أحدا، ولهذا نجد أن الله تعالى يضع فى سبيل الإنسان الإبتلاءات والعقبات الجسام وعلى رأسها الشيطان الذى أعلن العداوة وأظهر التحدى والذى يجرى منه مجرى الدم ويستخدم كل الحيل و يطرق كل السبل لإيقاعه فى الشرك ومعصية رب العالمين:

إنى ابتليت بأربع ما سلطوا	إلا لشدة شقوتى وعنائى
إبليس والدنيا ونفسى والهوى	كيف الخلاص وكلهم أعدائى
وأجد الهوى تدعو إليه خواطرى	فى ظلمة الشهوات والآراء

ولهذا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الكهف: ٧] وذلك ليقتحم المسلم كل تلك المعاطب والعقبات وصولا إلى مرضات رب العالمين. فيكون عندئذ مستحقا لحمل أمانة العبودية لأنه حينئذ لم يتغلب على شهواته فحسب ولا غرائزه ولذة نفسه فحسب. وإنما أيضا يكون قد جاهد الشيطان الرجيم جهادا كبيرا، مضحيا بكل ذى خطر من متاع الدنيا ومصلحة النفس. ومتحملا لكل أنواع الأذى ولكل صنوف العذاب اعترافا منه بعظمة رب العالمين. واستحقاقه العبادة والتعظيم والإجلال مما يعمق معنى وجوده ويحقق قيمة مهمته.

ولا شك أن نظرة الإسلام لمهمة الإنسان فى الوجود حَرِيَّة بالبحث وجديرة بالإهتمام والإحترام. فهى ولا ريب تجعل للوجود العام معنى ولوجود الإنسان قيمة ورسالة. فهو لم يخلق عبثا ولن يترك سدى. كما يظن أصحاب النظريات العبثية للوجود والذين يحصرون مهمة الإنسان فى الإستمتاع بمباهج الحياة وفى الطعام والشراب والقوة والسيطرة والثراء، ولا يُكلف أحدهم نفسه بمجرد التساؤل عن غاية الخلق أو مصير الوجود أو عما وراء تلك الأحداث والشهوات لأنهم جاءوا لا يعلمون من أين؟ ولا لماذا؟ ولا إلى أين؟ وكأنهم من صنوف الحيوانات وأنواع العجماوات ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ** ﴾ [محمد: ١٢].

● آيات الكون تشهد بجدية الرسالة:

بعد أن أخبر الله تعالى أنه خلق جميع هذا الكون أراد أن يخبرنا عمن خلقه لعمارة هذا الكون وسخره له. ومن يفتح كتاب الكون الضخم على مصراعيه ويستعرض مواكب الكائنات فيه يجد أنه مفعم بالآيات الدالة على الحكمة العليا من ورائه وناطق ومترع بالقوانين والموافقات العجيبة التى لا يستطيع العقل أن يحصيها أو يُلم بها ولكنه يقف أمام ما أحاط منها منحنيا مندهشا بل وساجدا لبارئها العظيم، ومستدلا على أن هناك قوة عظمى أوجدت. ومهمة سامية قصدت. ولنقلب فى بعض صفحات ذلك الكتاب المديد لنطالع فيها دلائل القدرة والإبداع والقصد والتدبير التى تستحيل معها الفلته والمصادفة وينعدم فيها الخلل والفطور - التفاوت والقصور - فهناك السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والكواكب والجبال والشجر والدواب والبحار والأنهار والنباتات والمزروعات والهواء والنار وما فى طيات كل ذلك من ومضات وايحاءات شتى تدل على الحكمة العليا والعلم المبين وراء ذلك الكون العظيم وآياته التى لا تتناهى.

فالليل والنهار يتعاقبان بترتيب واتساق وتزامن ينعدم فيه القصور ويستحيل معه التقديم أو التأخير رغم أنهما مترتبان على دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس. بسرعة معينة لو ازدادت لقل طول الليل والنهار ولو قلت لطال الليل والنهار ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٢] وكذلك موضع الأرض من الشمس وثبات ذلك الموضع دون حوامل أو ضوابط مرئية ورغم الأوزان الهائلة لكل من الشمس والأرض السابحتان مع بقية الأجرام فى فضاء لا نهائى. فوزن الشمس يقدره العلماء بألفى مليون مليون مليون مليون طن ووزن الأرض بستة آلاف وستمائة مليون مليون مليون طن. فرغم تلك الأوزان الهائلة لا تقترب الشمس من الأرض ولا تبتعد عنها لأنها لو اقتربت منها لارتفعت درجة حرارتها بدرجة تستحيل معها الحياة ولاحترقت كل الموجودات على سطحها.. ولو ابتعدت لانخفضت درجة الحرارة على سطحها فأصبحت زمهريرا تستحيل معه

الحياة ولتجمدت كل المياه والموجودات.. وكذلك فإن كل موقد يستنفد وقوده ويحتاج إلى التزويد والمزيد من الزيت أو الوقود ولكن الشمس مع التهابها واشتعالها لكل هذه الملايين من السنين فلم تحتاج إلى ذلك.

ويضرب الشيخ الشعراوى رحمة الله عليه لذلك مثلا فيقول: لو أن إنسانا صنع مصباحا كهربائيا فإنه يقيم لذلك مصنعا من المصانع الراقية المليئة بالخبراء والمهندسين والعمال. فهذا يصنع زجاج اللمبة وهذا يصنع كعب اللمبة وهذا يصنع التنجستين (المادة المتوهجة) باللمبة وهذا يفرغ اللمبة من الأكسجين حتى لا تحترق. ورغم ذلك تحترق اللمبة بعد شهور وتحتاج إلى بديل. وتعطب شبكات الكهرباء وتحتاج إلى متابعة وصيانة. أما الشمس التى تنير الكون كله منذ ملايين السنين فلم تتعطل فى يوم وتحتاج إلى بديل. ولم تعطب وتحتاج إلى صيانة. لأن الكهرباء وشبكاتها ومصابيحها تجرى بقدرة البشر أما الشمس فتجرى بقدرة رب العالمين.

وإذا أقام الإنسان شبكات للمواصلات فإنه يُعبِّد لها الطرق وينظم لها قوانين المرور، ورغم ذلك تحدث المخالفات وتقع المصادمات فتصطدم السيارات أو القطارات وتمتلىء المستشفيات بالجرحى أو القتلى. رغم كل الاحتياطات والقوانين. أما السماء المليئة بالشموس المتحركة. والأقمار السائرة. فلم نسمع فى يوم عن اصطدام شمس بشمس. أو كوكب بكوكب. لماذا؟ لأن السيارات والقطارات والطائرات تجرى بقدرة البشر. أما الشمس فتجرى بقدرة رب العالمين ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [يس: ٣٨ - ٤٠].

وكذلك دورة الماء الذى تبخره الشمس من المحيطات والبحار فيتصاعد إلى طبقات الجو العليا والتى تشاء إرادة الحكيم العليم أن تكون باردة ومنخفضة فى درجة حرارتها مما يؤدى إلى تكاثف ذلك البخار وعودته إلى صورته السائلة فى شكل قطرات من الماء يصعب على الهواء حملها فتسقط فى صورة أمطار لتجرى منه الأنهار، وتنمو به الأشجار وتنضج به الثمار فى تنوع عجيب يتفق مع احتياجات الإنسان فهذه الحبوب - القمح والذرة والشعير - لصناعة الخبز. وهذه البقول التى تحتوى على البروتينات. وهذه الخضروات المحتوية على الفيتامينات. وهذه الفواكه

المحتوية على المعادن. وهذا القصب والبنجر لإنتاج السكر. وهذه الألياف – القطن والكتان – لصناعة الملابس وبعض البذور لإنتاج الزيوت. والزهور للروائح. والأخشاب للأثاث والسفن وكذلك الأعلاف والنباتات لغذاء الماشية التى بدورها تدر الألبان اللازمة لانتاج الزبد والأجبان. والمنتجة كذلك للحوم.

كما توفر قدرة العليم الحكيم مصادر الطاقة من فحم وبترول وذلك بانطمار الغابات تحت الرمال منذ آلاف السنين. كما ترتب المعادن اللازمة للعمران بمختلف أنواعها.

ثم نجد توافقًا آخر.. ففى داخل جسم الإنسان أعضاء. كل عضو مهيأ لهضم نوع من هذه الأنواع والذى يتم توزيعه بعد ذلك على الخلايا المحتاجة إليه فى أنحاء الجسم.

ثم يخلق رب العالمين الزوجين الذكر والأنثى اللازمين لاستمرار النوع البشرى. وهما جنس واحد انقسم إلى نوعين. وهما: الذكر والأنثى وبينهما توافق يستحيل أن يحدث بغير علم وحكمه وقدرة رب العالمين. فالمرأة عضوها التناسلى داخلى ومطمور. أما الرجل فعضوه التناسلى بارز. وكأن هذا مهيأ لذاك. ثم ينتج رحم المرأة البويضة. بينما ينتج الذكر الحيوان المنوى. الذى يخصب تلك البويضة ويندمج بها. فيتحولان إلى علقة تتعلق بجدار الرحم. ثم إلى مضغة. فعظام. ثم تكسى العظام لحما. ثم تنفخ فيه الروح وينشأ خلقا آخر. فإذا به بشرًا سويا.. وذلك أيضا فى تركيب عجيب. وفى طيات ذلك أيضا عجائب أخرى لا حصر لها. إذ اكتشف علماء الهندسة الوراثية. أن كل خلية من خلايا الجسم والتى لا ترى إلا بالمجاهر التى تكبرها ملايين المرات. تتكون من ستة وأربعين كرموسوما. ما عدا خليتين! خلية فى المرأة وهى البويضة. والتى تتكون من نصف هذا العدد أى ثلاثة وعشرين. وخلية فى الرجل وهى الحيوان المنوى. والذى يتكون بدوره من نفس هذا العدد أى ثلاثة وعشرين كرموسوما. فإذا ما اندمج الحيوان المنوى مع البويضة مخصبا لها عقب المباشرة. فإنهما معا يُكوِّنا خلية كاملة تتكون من ستة وأربعين كرموسوما. وهو ما يؤكد القصد والتدبير والتوفيق والترتيب الذى يستحيل فيه العبث ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً**

فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٤] وغير ذلك الكثير فى صفحات الكون وذوات الأنفس ولكن البشر في جاهليتهم لا ينظرون ولا يقرأون ولا يتدبرون ولا يشكرون ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١٠ – ١١].

● **الإعلام بخلق آدم عليه السلام:**

ولنعش ايحاءات اللحظات الأولى من قصة البشرية. ونستلهم ذلك السر الإلهى العظيم الذى أودعه الله تعالى هذا الكائن البشرى وهو يسلمه مقاليد الخلافة فقد وهب من الأسرار ما يرفعه على الملائكة فإلى جانب سر المعرفة. وهب سر الإرادة المستقلة التى تختار الطريق. فازدواج طبيعته، وقدرته على تحكيم إرادته في شق طريقه واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٠ – ٣٤].

قال ابن كثير رحمة الله عليه: أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضا. كما قال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٩٥] فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته. فقالت الملائكة سائلين على وجه الإستكشاف والإستعلام عن وجه الحكمة لا على وجه الإعتراض والتنقص لبنى آدم والحسد لهم. كما قد يتوهمه بعض الجهلة «قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك

الدماء». قال قتادة: علموا أن ذلك كائن بما رأوا مما كان قبل آدم عليه السلام من الجن والبن. وقال ابن عباس وابن عمر وناس من الصحابة رضوان الله عليهم: كانت الجن قبل آدم بألفى عام فأفسدوا فى الأرض وسفكوا الدماء. فبعث الله إليهم جنداً كثيفا من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور. وعن الحسن ألهموا ذلك. وقيل اطلعوا عليه فى اللوح المحفوظ. وقيل لأنهم علموا أن الأرض لا يخلق منها إلا من يكون بهذه المثابة الغالبة»[1].

فهم علموا أنهم سيخلقون من الأرض ولهذا ظنوا فيهم الفساد والطغيان فهى مادة مظلمة وقاتمة ومن كان شأنه أن يكون من الأرض فقد عرف بالفساد والطغيان ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ **هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ** ﴾ [النجم: ٣٢].

أضف إلى ذلك أن الجان وعلى رأسهم إبليس كان يعمر الأرض قبل آدم ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ** ﴾ [الحجر: ٢٦ – ٢٧] أى من قبل آدم. فأفسدت فى الأرض وملأت طباق الأرض ظلما ولهذا قالت الملائكة: أيكون هذا الخليفة كمن سبقه من هؤلاء الخلائق؟ فالسؤال هنا عن الحكمة. لا سؤال اعتراض فما كان للملائكة أن تعترض.

ويقول صاحب الظلال رحمة الله عليه مؤكدا ذلك: وسؤال الملائكة يوحى بأنه كان لديهم من شواهد الحال أو من تجارب سابقة فى الأرض أو من إلهام البصيرة ما يكشف عن شىء فى فطرة هذا المخلوق أو من مقتضيات حياته على الأرض. وما يجعلهم يعرفون أنه سيفسد وأنه سيسفك الدماء. وقد خفيت عليهم حكمة الله العليا فى بناء هذه الأرض وعمارتها وفى تنمية الحياة وتنوعيها. وفى تحقيق إرادة الخالق فى تطويرها وترقيتها وتعديلها على خليفة الله فى أرضه. هذا الذى قد يفسد أحيانا وقد يسفك الدماء أحيانا. ليتم من وراء هذا الشر الجزئى الظاهر خير أكبر وأشمل. خير النمو والرقى الدائم. خير الحركة البانية الهادمة. خير المحاولة التى لا تكف. والتطلع الذى لا يقف والتعبير والتطوير فى هذا الملك العريض. ولهذا جاء

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ .

إلى الملائكة القرار من العليم بكل شيء والخبير بمصائر الأمور ﴿ **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾.
وكأنه تعالى يلفتهم إلى أن مهمة هذا المخلوق فى إطار العبادة والتسبيح والتحميد والتمجيد ستسبق مهمتهم فيها. وسيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديون والشهداء والصالحون.

ونحن نتفق مع هذا الرأى ومع رأى من قال من السلف الصالح أن الملائكة ألهموا ذلك. كنوع من التعمية على إبليس اللعين الموجود بينهم حينذاك والذى أراد الحق تبارك وتعالى أن يخرج خبيئة كبره ويفضح حقيقة أمره. كما سيتضح فيما بعد. وقوله تعالى: ﴿ **وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾ قد يدل على هذا المعنى. لأن الملائكة لا يقترحون على الله ولا يقدمون بين يديه ولا يسبقونه بالقول ولا يعترضون على إرادته وإنما هم ﴿ **عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ** ﴾.
[الأنبياء: ٢٦ - ٢٨]

ثم بين الحق تبارك وتعالى عطاءه لآدم عليه السلام وشرفه على الملائكة فى العلم، فعلمه أسماء كل دابة وطير وسهل وبحر وحيوان وملائكة وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. ثم سأل الملائكة عنها. فقالوا: لا علم لنا بذلك. وسبحوه تعالى أن يعلم أحد بشيء من علمه إلا بتعليمه. فأمر آدم عليه السلام أن يخبرهم بها فأخبرهم فقال تعالى: ﴿ **قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾ وقال بعض السلف: «وأعلم ما تبدون» يعني قولهم: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء» وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾. أى إبليس حين أسر النفاسة على آدم.

- **خلق آدم عليه السلام من طين:**

ثم أرسل الحق تعالى جبريل عليه السلام كى يأتى بقبضة من طين الأرض. فذهب ليأتى بالتراب. فقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن تنتقص منى قبضة يكون منها نصيب للنار يوم القيامة. فأعاذها. ونزل اسرافيل وميكائيل فاستعاذت الأرض فأعاذوها. فأمر تعالى ملك الموت بذلك فهبط. فقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن

تنتقص منى. فقال لها: وأعوذ بالله أن لا أنفذ أمره فيك. وجمع من جنبات الأرض قبضات التراب. فقال الله تعالى له: أنت قابض الأرواح منهم ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنوا آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك»(١). وفى حديث آخر عن ملك الموت فأخذ وخلط ولم يأخذ من مكان واحد. وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء فلذلك خرج بنوا آدم مختلفين.

وقد جاء القرآن الكريم بخلق الإنسان من تراب أو طين عبر عدد من المراحل في سبع عشرة آية. فمثلا قال تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا** ﴾ [الفرقان: ٥٤] وقال فى موضع آخر: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ** ﴾ [الروم: ٢٠] وقال فى موضع ثالث: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ** ﴾ [الإنعام: ٢] وقال فى موضع رابع: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ** ﴾ [الصافات: ١١] وقال فى موضع خامس: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ [الحجر: ٢٦] وقال فى موضع سادس: ﴿ **خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ** ﴾ [الرحمن: ١٤] وليس بين هذا تناقض لأن وضع الماء على التراب يجعله طينا ويترك حتى يلتصق بعضه ببعض فيصير لازبا ثم يترك حتى يتعفن فيصير حمأ مسنونا ثم يترك حتى يتخشب وييبس فيصير صلصالا ثم ينفخ فيه الروح.

وإذا كان الإنسان لم يشهد عملية الخلق هذه. فإنه يشهد هدمه ووفاته وكما يقول فضيلة الشيخ الشعراوى رحمة الله عليه: إن الهدم عكس البناء. أى لو بنى الإنسان منزلا. فإنه يبدأ بالأساس ثم بالطابق الأول ثم الثانى ثم الثالث.. وهكذا.. فإذا أراد أن يهدمه فإنه يبدأ بالثالث ثم الثانى ثم الأول ثم الأساس. أى عكس البناء. وهذا ما يحدث لجسد الإنسان عند الوفاة. فإنه يمر بعكس مراحل الخلق كما وصفها القرآن فآخر ما وضع فى البناء وهى الروح. أول ما يخرج عند الموت والهدم ثم ييبس الجسد ويصبح صلصالا كالفخار أى يتخشب ويتصلب كأنه تمثال ثم يصير حمأ مسنونا وطينا لازبا حين تبدأ خلاياه فى التعفن والتحلل وتأخذ الجثة فى التفسخ

(١) الترمذى وقال صحيح.

الكامل وانطماس المعالم ثم تتحول إلى طين. فإذا فقد ماءه بالكامل تحول إلى تراب يرجع إلى الأرض(١). وهو عكس الخلق.

وعندما حلل العلماء عينة من جسم الإنسان. وجدوها تتكون من نفس العناصر التى يتكون منها التراب. فهى تتكون من ستة عشر عنصرا. تبدأ بالأكسجين وتنتهى بالمنجنيز – فسبحان الخلاق العظيم – حتى قال بعضهم: إذا دخلت أنا وأنت معامل التحليل الكيميائية لنعرض ابن آدم فى وزارة التموين كم يساوى؟ لو جئنا بإنسان يزن ثمانين كيجم وأدخلناه فى معامل التحليل. وسعرنا العناصر التى خلق منها كم يساوى؟! إننا نجد فيه من الكربون ما يصلح لصناعة عشرة أقلام رصاص. ومن الدهن ما يصنع سبع قطع من الصابون. ومن الفوسفور ما يصنع منه مئة عود من الثقاب. ومن الماغنسيوم ما يكفى لتبييض عشة دجاج. ومن الكبريت ما يكفى لتطهير جلد حيوان من الحشرات. ومن الحديد ما يصنع مسمار متوسط!! فكم تساوى هذه العناصر لو سعرت؟ مهما كان ابن آدم عظيما. ملكا أو مملوكا. عبدا أو وزيرا غنيا أم فقيرا؟

الناس من جهة التصوير أكفاء	**أبوهم آدم والأم حواء**
فإن يكن لهم فى أصلهم شرف	**يتفاخرون به فالطين والماء**

وقال الآخر:

يا مدعى الكبر إعجابا بصورته	**انظر خلاك فإن النتن تثريب**
لو فكر الناس فيما فى بطونهم	**ما استشعر الكبر شبان ولا شيب**
يابن التراب ومأكول التراب غدا	**إقعد فإنك؛ مأكول ومشروب(٢)**

وعلى كل حال فقد أخذ تعالى الطين بيده لئلا يتكبر إبليس عليه. فخلقه بشرا بيده سبحانه فكان جسدا من طين. فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه. وكان أشدهم منه فزعا إبليس. فكان يمر به فيضربه. فيصوت الجسد كما يصوت الفخار. أى يكون له صلصلة. فيقول له: لأمر ما خلقت!. وجعل يدخل من فيه ويخرج من

---

(١) الشعراوى – معجزة القرآن.
(٢) قصص الأنبياء – الشيخ كشك جـ ٤ .

دبره ويقول للملائكة : لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف ـ أى أنه خلق لا يتمالك ـ لئن سلطت عليه لأهلكنه .

ولنا أن نتأمل ذلك القول الوثنى الصرف الذى يقول فيه اللعين : لا ترهبوا هذا فإن ربكم صمد وهو أجوف . . لأنه يوضح بلاهه وسذاجة تصوره عن رب العالمين الذى خطر بباله السفيه ولو للحظة . أنه تعالى قد يتجسد فى هذا الكائن . فلما اختبره وأدرك كونه أجوفا . أقلع عن هذا التصور الضحل . وقال للملائكة ما قال . وإلا فما الذى حمله على المقارنة فى قوله : إنه أجوف وربكم صمد . . إلا هذا الوهم الذى وقع بخاطره السقيم . وكأنه أراد أن يقول للملائكة : لو كان هذا ربكم فلا أقدر عليه ولكنه ليس بربكم ولهذا أقدر عليه . رغم أن أحدا لم يدعى له ذلك حتى يوضحه أو ينفيه . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ! .

فلما بلغ الحين الذى يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح . قال تعالى للملائكة إن أحدكم سيطرد من رحمتى . وهنا بلغ الخوف من الملائكة مبلغه . ثم قال لهم : إذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فلما نفخ فيه الروح ودخل الروح فى رأسه عطس . فقالت الملائكة له : قل الحمد لله . فقال : الحمد لله . فقال له ربه : رحمك ربك يا آدم . فلما دخلت الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة . فلما وصلت إلى جوفه اشتهى الطعام . فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنة وهو قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾[1] [الأنبياء : ٣٧] .

وهكذا أصبح آدم إنسانا مكتملا من لحم ودم وعظم وعصب . يتحرك ويدرك ويسمع ويرى بإرادة رب العالمين . وهذا يدل أن عناية الله وقدرته إذا وجهت إلى الشىء الحقير خلعت عليه حلل البهاء والجلال وصيرته عظيما كما توجهت إلى التراب . فصيرته بشرا سويا . وجعلته مظهرا لأسرار قدرته وعلمه وحكمته . حتى أفاض عليه من العلم والمعرفة ما أقرت الملائكة بالعجز عن معرفته أو ادراكه ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[2] [السجدة : ٩] .

---

(١) ورواه ابن حبان بسند جيد .
(٢) وانظر قصص الأنبياء ـ للنجار .

ثم قال تعالى: « يا آدم اذهب إلى هؤلاء النفر فقل لهم فانظر ماذا يقولون؟ فجاء فسلم عليهم. فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. فقال: يا آدم هذه تحيتك وتحية ذريتك. قال يارب وما ذريتى؟ قال: اختر يدى يا آدم. قال أختار يمين ربى وكلتا يدى ربى يمين. فبسط كفه. فإذا من هو كائن من ذريته فى كف الرحمن. فإذا رجال منهم أفواههم النور. وإذا رجل يعجب آدم نوره. قال: يارب من هذا؟ قال ابنك داود. قال يارب فَكم جعلت له من العمر؟ قال جعلت له ستين. قال يارب فاتم له من عمرى حتى يكون عمره مائة سنة. ففعل الله ذلك. وأشهد عليه. فلما تقدم عمر آدم بعث الله ملك الموت. فقال آدم: أو لم يبق من عمرى أربعون سنة؟ قال له الملك: أو لم تعطها إبنك داود؟ فجحد ذلك. فجحد ذريته ونسى فنسيت ذريته »[1].

وفى رواية ابن أبى حاتم: وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام. فقال آدم: يارب لم فعلت هذا بذريتى؟ قال: كى تشكر نعمتى. ثم أكمله[2].

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا** ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. فقال: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال: إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية وقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية. وقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون. فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له »[3]. ولهذا العهد والميثاق أثر حى متصل فى الأرواح. دائما ما يتفجر فيها ويحدوها نحو التطلع والاشتياق لله رب العالمين. حتى يقول القائل:

يا بـلادا حُجبت منـذ الأزل	**كيف نرجوك ومن أين السبيل**
أى قفـر دونهـا أى جبـل	**سورها العالى ومن منا الدليل**
أسـراب أنـت أم أنـت الأمـل	**فـى نفـوس تتمنـى المستحيل**

---

(١) الترمذى – قال حسن صحيح.
(٢) رواه مالك فى الموطأ.
(٣) رواه مالك.

أمنــــام يتهـــادى فى القـــلوب فــإذا ما اســتيقظت ولـى المنــام
أم غيوم طفن فى شمس الغـروب قبـل أن يغـرقن فى بحــر الظـلام
يا بـلاد الفـكر يا مهـــد الأُلـىٰ عبــدوا الحق وصــلوا للجمـــال
مــا طـلبنـــاك بـركـب أو عــلـى متن ســفن أو بخيـــل ورحـــال
لسـت فى الشرق ولا الغـرب ولا فى جنوب الأرض أو نحو الشمال
أنـت فـــى الأرواح أنـــوار ونـــار أنــتِ فى صـــدرى فـؤاد يختــلج

● سجود الملائكة لآدم:

ثم أمر الحق تبارك وتعالى الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام تكريما له وتعظيما لشأنه أن خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه. كما قال تعالى: ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ [الحجر: ٢٩]. ليتم تشريف الله لهذا المخلوق أربع تشريفات وهى أن خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وعلمه الأسماء كلها ثم أمر الملائكة بالسجود له.. ليس من قبيل العبادة التى لا تجوز لغير الله تحت أى ظرف من الظروف. ولكن يحتمل معانٍ متعددة وهى: أن يكون سجود للجهة. أى أن الله تعالى امرهم أن يجعلوه قبلة للسجود له سبحانه. مثل السجود للكعبة أى لجهتها.. ويحتمل أيضا تعظيما لإرادة الله فيه وهو السجود طاعة وامتثالاً لأمر الله.

ونضيف هنا أن الله تعالى أمرهم أن يسجدوا لله تعالى سجدة من أجل آدم. أى بنية الدعاء له بالتوفيق والتيسير والتقوية على مهمته الشاقة فى اعمار الأرض ومحاربة الشيطان. كما يقول القائل: سأصلى لك ركعتين. وذلك بطبيعة الحال ليس بمعنى العبادة ولكن بنية الدعاء. لا سيما وأن الملائكة قد نوهوا سابقا عما يكتنف مهمته من مصاعب وعقبات.

وعلى كل حال كان صدور أمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم بسبب صنعه إياه بيديه. أى أن الإنسان كان المظهر التام للقدرة والصنعة الإلهية. وفى داخله روح خاصة نفخها الله فيه. ووضع فيه من الصفات التى تتصف بها ذات البارى جل وعلا. ولكن على نطاق محدود بالنسبة للصفات المطلقة واللا محدودة و التى تفوق كل كمال فهو تعالى ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾.

ولكن هل سجد كل الملائكة لآدم؟ لا. وإنما سجد لآدم الملائكة الذين لهم مهمة معه مثل الحفظة ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الانفطار: ١٠ – ١٢]. والكتبة ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق: ١٨]. والمدبرات ﴿ **فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا** ﴾ [النازعات: ٥] وهم من ينفذ أقدار الله فى الأرض.. ولكن الأمر بالسجود لم يشمل أولئك الملائكة العالين من حملة العرش وحراس السماء. وغيرهم ممن ليست لهم مهمة مع الإنسان ولهذا سأل الله إبليس بقوله: ﴿ **أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ** ﴾ [ص: ٧٥]. أى أنك كنت من العالين الذين لم يشملهم أمر السجود.

وقد يقول البعض: إن إبليس لم يشمله أمر السجود لأنه ليس ملكا ولكنه من الجن. ولكن وجوده مع الأعلى منه وهم الملائكة فى تلك اللحظة موجبا للسجود. فما دام الأمر قد صدر إلى الأعلى بالسجود فإنه ينطبق على الأدنى، ولهذا لم يبرر عدم سجوده بذلك وإنما رد الأمر ولم يلتزم بطاعة ربه. وليس لأحد أن يكون أقوم بحجة إبليس من إبليس نفسه. فلو لم يكن مأمورا. لقال لله تعالى حين سأله! إنك لم تأمرنى. ولكنه أظهر التكبر ولم ينفى الأمر ففهمنا أنه كان مأمورا. وإن كان من غير الملائكة. لأن الله تعالى أمر الشاهدين لنفخ الروح فى آدم بالسجود وإبليس كان حاضراً فشمله الأمر.

ولقد سجد الملائكة كلهم أجمعون فى التو واللحظة امتثالا وطاعة، لأمر رب العالمين إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين. فلما رفعوا من السجود رأوا أن إبليس لم يسجد. فعلموا أنه المقصود بالطرد من رحمة الله الذى أخبرهم ربهم به. فسجدوا مرة ثانية شكراً لله عز وجل. وهما سجدتا الصلاة فى كل ركعة. فنحن نركع مرة واحدة ونسجد سجدتين كما فعل الملائكة. الأولى للأمر. والثانية للشكر.

ولهذا يريد الله أن يظهر لهذا اللعين فضل آدم عليه حينما يأمر آدم عليه السلام بتقبيل الحجر الأسود ورجم الشيطان ضمن مناسك الحج. ليظهر له أنه مطيع لربه. ويطيع دون فلسفة ولا كبرياء. فكان من الممكن أن يقول: كيف أتصارع على تقبيل حجر وهو جماد من الجمادات التى هى أدنى المخلوقات. وأنا الإنسان سيد هذا الكون وكيف أرجم فى ذات اللحظة حجر آخر. ولكنه لا يقول هذا ولا يفكر فى ذاك. لأنه الأمر من الله. وما دام كذلك فلا بد من الطاعة.

ولهذا يقول الله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ [النبأ: ٤٠] والحقيقة أن الكافر هنا بالتعريف تعنى الشيطان لأنه معلم الناس الكفر ويتمنى يوم القيامة. يوم الحسرة والندامة. أن يكون ترابا من جنس آدم. والذى تكبر عن السجود له بسببه. ثم ينجو من غضب الله وعقابه ولا يكون مخلوقا من النار ويتعرض لبطش الله وغضبه. ثم يتبعه كل الكافرين قائلين أيضا: ياليتنا كنا ترابا ولم نكن شيئا مذكوا. ياليتنا كنا نسيا منسيا.

● **من هو إبليس:**

إختلف العلماء هل كان إبليس من الجن المخلوقين فى الأرض قبل آدم. أم من الملائكة على قولين:

الأول: على أنه من الجن الذين خلقوا من مارج من نار. إما أصل الملائكة من النور. كما ثبت عن رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم»(١) . فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه. وخانه الطبع عند الحاجة. وذلك أنه كان قد توسم وتشبه بأفعال الملائكة وتعبد وتنسك فلهذا أدخل فى خطابهم. وعصى بالمخالفة ونبه تعالى هنا على أنه من الجن أى أنه خلق من النار كما قال تعالى: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾. قال الحسن البصرى: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط وإنه لأصل الجن. كما أن آدم عليه السلام أصل البشر(٢).

ويرى الشيخ الشعراوى رحمه الله أن كون إبليس من الجن هو الذى جعله يعصى أمر الله بالسجود. فلو أن إبليس كان من الملائكة – وهم مقهورون على الطاعة – كان لابد أن يطيع ويسجد. ولكن كونه من الجن الذين لهم اختيار فى أن يطيعوا وأن يعصوا. فذلك الذى مكنه من أن يعص أمر السجود. وفتح له بابها. فهو قد دخل من باب الاختيار الممنوح للإنس والجن فى الحياة الدنيا وحدها. ولو أراد الله تعالى أن يكون إبليس مقهوراً على الطاعة. ما كان يستطيع أن يعص. ولكنه خلق مختارا. ولهذا سأله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٢]. وكان

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه.

كفر إبليس وخلوده فى النار. أنه رد الأمر على الآمر وقال: ﴿أأسجد لمن خلقت طينا﴾[١] [الإسراء: ٦١].

والقول الثاني: عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن إبليس كان من حى من أحياء الملائكة. يقال لهم الجن. خلقوا من نار السموم من بين الملائكة. وكان اسمه الحارث وكان خازنا من خزان الجنة. وخلقت الملائكة من نور غير هذا الحى. وقال: وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار. وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا التهبت. وقال ابن عباس أيضا: كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة. وكان خازنا على الجنان. وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض. وكان مما سولت له نفسه - من قضاء الله - أنه رأى أن له بذلك شرفا على أهل السماء. فوقع من ذلك فى نفسه كبر لا يعلمه إلا الله. واستخرج الله ذلك الكبر منه حيث أمره بالسجود لآدم. وقال عن قوله تعالى: ﴿من الجن﴾ أى من خزان الجنان. كما يقال للرجل: مكى ومدنى وبصرى وكوفى. وقال ابن عباس أيضا: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل وكان من سكان الأرض. وكان من أشد الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما. فذلك دعاه إلى الكبر. وكان من حى يسمونه جنا - أى من الملائكة - فعصى فسخط الله عليه. فمسخه شيطانا رجيما. وعن سعيد ابن جبير: كان من الجنانين الذين يعملون فى الجنة[٢].

ورويت آثار كثيرة عن السلف وغالبها من الإسرائيليات والله أعلم بحال كثير منها. فروى: أن إبليس كان اسمه فى السماء الدنيا العابد وفى الثانية الزاهد. وفى الثالثة العارف. وفى الرابعة الولى. وفى الخامسة التقى. وفى السادسة الخازن. وفى السابعة عزرائيل. وفى اللوح المحفوظ إبليس. وهو غافل عن عاقبة أمره. فأمره الله أن يسجد لآدم. فقال: أتفضله علىّ وأنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين؟ فقال تعالى: أنا أفعل ما أشاء. فرأى لنفسه شرفا. فولى آدم ظهره أنفة وكبراً. وانتصب قائماً. إلى أن سجدت الملائكة المدة المطلوبة. فلما رفعوا رؤوسهم ورأوه لم يسجد وهم اعتدلوا من السجود. سجدوا ثانياً شكراً. وهو قائم يُرى معرضاً عنهم. غير عازم

(١) وانظر تفسير الشعراوى.
(٢) تفسير ابن كثير.

على الإتباع. ولا نادم على الامتناع فمسخه الله تعالى من الصورة البهية ونكسه كالخنزير. وطرده من الجنة. بل من السماء بل من الأرض. إلى جزائر البحور. فلا يدخل الأرض إلا خفية. ولعنه إلى يوم الدين لأنه صار من الكافرين. وقد كان بهى الصورة. رباعى الأجنحة كثير العلم. كثير العبادة وطاووس الملائكة وأعظمهم هيئة فلم يغن ذلك عنه شيئاً وطرد من رحمة الله(١).

وبعد هذا العرض لكلا القولين يتفجر سؤال خطير ووجيه فى العقول ويتطلب الإجابة الشافية. ألا وهو!.

إذا كان إبليس من الجن فكيف صعد إلى هذا المرتقى ليكون فى وسط الملائكة بهذه المكانة العالية السامقة؟. وإذا كان من الملائكة فكيف تتخلف فيه صفاتهم من العبودية المحضة والطاعة المطلقة لله رب العالمين؟ وكيف تتخلف فيه إرادة الله الخلاق العليم ليعصى وهو من المخلوقين للطاعة؟ والعبادة والذكر؟

وتلوح الإجابة فى الأفق ويمسك أصبعى بطرفها. فهناك رواية تجيب على الشق الأول من السؤال ولكن بشكل غير شاف ولا كاف. وهى قول شهر بن حوشب رحمه الله: كان إبليس من الجن فلما أفسدوا فى الأرض بعث الله إليهم جندا من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحور. وكان إبليس ممن أسر فأخذوه معهم إلى السماء. فكان هناك. فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه(٢). ولكن لمَ إبليس بالذات الذى يؤخذ إلى السماء؟ وكيف يمتنع وهو أسير الملائكة؟ لا. هناك ولابد شىء آخر!!

فلا شك أن كون إبليس من الجن هو الأمر الذى لا غبار عليه ولا لبث فيه لأن الملائكة مخلوقات نورانية طائعة شفافة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون ومنهم الساجد إلى يوم القيامة والراكع إلى يوم القيامة والقائم بذكر الله إلى يوم القيامة ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٨] ومن

---

(١) تفسير ابن كثير.
(٢) قصص الأنبياء - ابن كثير.

الإستحالة أن تتخلف فيهم أو فى بعضهم قدرة الله وإرادته ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٤٩ – ٥٠] فلا مجال للمعصية إذن.

فمع النظر وتقليب الأمر يتضح أن إبليس لعنه الله من الجن وعلى الأرجح هو أصلهم كما قال الحسن البصرى وكان من أشدهم فسقا وأكثرهم فسادا وعصيانا وكان من السماعين إلى السماء ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [الجن: ٨ – ٩]. فلما علم أن الملائكة أمرت بإهلاك الجن الفسقة وإجلائهم إلى جزائر البحور. نافق محاولاً محاولته الأخيرة اليائسة لكى ينجو من هذا المصير المحتوم. وهداه مكره وخداعه أن يتشبه بالملائكة فى العبادة والسجود والطاعة والذكر فلم يترك بقعة على الأرض موضع أربع أصابع إلا وسجد عليها سجدة لله تعالى. وجعل يجتهد فى ذلك اجتهادا كبيرا. فلما نزل الملائكة وأدوا مهمتهم. احتاروا فى أمر ذلك العابد. الذى هو أساس القائمة المطلوب إهلاكها. فأخذوه معهم ليرى فيه العليم الخبير أمره. كما يقال أن الملَك يقول لصاحبه: اكتب تصفير وعلى الله التفسير. فأخذوه معهم إلى السماء. وهنا تركه العليم الخبير ولم يفضح أمره وإنما تركه فى وسط الملائكة حتى ارتفع شأنه كما سبق. وظن أن خدعته قد انطلت حتى على رب العالمين. ولعله تذكر مكره الأول وتصور على الله الغفلة والنسيان والخطأ وأن حيلته وخدعته قد انطلت عليه سبحانه. ومن هنا اعترض ثانيا على أمر السجود متهما رب العالمين بالخطأ فى أمره بالسجود لهذه الكتلة الطينية المتحركة ولهذا المخلوق المهين كما أخطأ من قبل فى قبوله مع الملائكة. لعنة الله عليه فى الملأ الأعلى إلى يوم الدين. وهذا ما ينطبق عليه قول الله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢].

يا أيها المتحلى غير شيمته ... ومن شمائله التبديل والملق

ارجع إلى خلقك المعروف ديدنه ... إن التخلق يأتى دونه الخلق

فتركه تعالى يرتفع ليأخذه أخذته الشديدة الرابية. ثم خلق آدم أمامه من طين لازب ثم أمره بالسجود له فكان الكبرياء والامتناع وافتضاح الأمر واتضاح الحق ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا

دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٥٠ – ٥٢].

يقول الأستاذ أحمد بهجت: خلق الله تعالى مع الملائكة خلقًا آخر يسميه الجن. والجن مخلوقات مستترة وليست أجسادًا ظاهرة لنراها. وهذا هو وجه الشبه الوحيد بين الجن والملائكة. فقد خلق الله الجن من النار وخلق الملائكة من النور. والملائكة بحكم تكوينهم الخير المحض أو الخير المطلق. أما الجن فمخلوقات تخضع للتكليف ومنهم الطيب والخبيث. ومن أشهرهم إبليس الذى كان يقف مع الملائكة حين صدر إليهم أمر السجود لآدم فلما رفض وأبى صار رمزاً للشر في الكون. والصحيح أنه من الجن ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف: ٥٠]. ما الذى كان يفعله هناك مع الملائكة؟ ما الذى عمله حتى استحق أن ينال شرف الوقوف مع الملائكة؟ هذا كله غيب.

يقول العلماء: أنه عبد الله آلاف السنين ليترقي ولكنه كان سيداً من سادة الكبرياء والانتهازية والشر قبل خلق الإنسان. لقد عبد الله حبًا فى المجد والرياسة لا حبًا فى الله. كان رمزًا لروح الشر. وكانت العبادة هى طريق السمو والارتقاء فسلك هذا الطريق. فلما صدر الأمر بالسجود إلى الملائكة لزمه الأمر بوصفه أقل منهم ساعتئذ! انحسرت دوافعه للعبادة عن وجه الكبرياء. ورأى أهدافه فى المجد تهدر. والفى نفسه مأموراً بالسجود لآدم وهو مخلوق من طين فاستكبر ورفض. وبذلك اختار إبليس يومها – والله يعلم أنه سيختار – أن يكون رمزًا للشر على الأرض ومن يومها خسر نفسه وكسب الشهرة. ووقفت روحه تساند كل الشرور والمظالم والآثام فى الأرض.. وعلى كل حال فإن هذا المخلوق هو الدرجة الأخيرة فى اللون الأسود من الشر[1].

● **الشيطان يرفض السجود:**

يقول ابن القيم رحمه الله: كاد الشيطان لنفسه قبل كيده للأبوين. ثم كاد ذرية نفسه وذرية آدم فكان مشئومًا على نفسه وعلى ذريته وأوليائه وأهل طاعته من الجن والإنس. أما كيده لنفسه.

---

(١) أنبياء الله – أحمد بهجت.

فإن الله عز وجل لما أمره بالسجود لآدم كان فى امتثال أمره وطاعته سعادته وفلاحه وعزه ونجاته. فسولت له نفسه الجاهلة الظالمة: أن فى سجوده لآدم غضاضة عليه وهضماً لحقه. إذ يخضع ويقع ساجداً لمن خلق من طين. وهو مخلوق من نار. والنار بزعمه أشرف من الطين. فالمخلوق منها أفضل من المخلوق منه. وخضوع الأفضل لمن هو دونه غضاضة عليه وهضم لمنزلته، فلما قام بقلبه هذا الهوس وقارنه الحسد لآدم لما رأى ربه قد خصه من أنواع الكرامة والتكريم. فإنه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وأدخله الجنة. فعند ذلك بلغ الحسد من عدو الله كل مبلغ. لا سيما وقد خلقه عليه السلام فى أحسن تقويم وأكمل صورة وأجملها. وكُمِّلت محاسنه الباطنة بالعلم والحلم والوقار. والظاهرة حتى وصل طوله فى السماء ستون ذراعاً. وقد ألبس رداء الجمال والحسن والبهاء والمهابة. فرأت الملائكة منظراً لم يشاهدوا أحسن منه ولا أجمل فوقعوا كلهم سجوداً له بأمر ربهم. فشق الحسود القميص من دبر واشتعلت فى قلبه نيران الحسد المبين فأبى أن يسجد مع الساجدين. ثم أردف ذلك بالإعتراض على العليم الحكيم الذى لا تجد العقول للإعتراض على حكمته سبيلا. فقال: « أرأيتك هذا الذى كرمت على؟ لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا » وتحت هذا الكلام معنى: أخبرنى لما كرمته علىّ؟ وغور هذا الإعتراض: أن الذى أمرتَ به ليس بحكمة ولا صواب. وأن الحكمة كانت تقتضى أن يسجد هو لى. لأن المفضول يخضع للفاضل. فلِمَ خالفت الحكمة؟ ثم أردف ذلك بتفضيل نفسه عليه وإزرائه به فقال: « أنا خير منه » ثم قرر ذلك بحجته الداحضة فى تفضيل مادته وأصله على مادة آدم وأصله. فأنتجت له هذه المقدمات إباءه وامتناعه من السجود ومعصيته الرب المعبود. فجمع بين الجهل والظلم والكبر والحسد والمعصية. فأهان نفسه كل الإهانة من حيث أراد تعظيمها. ووضعها من حيث أراد رفعتها. وأذلها من حيث أراد عزتها وآلمها كل الألم من حيث أراد لذتها. ففعل بنفسه ما لو اجتهد أعظم أعدائه فى مضرته لم يبلغ منه ذلك المبلغ. ومن كان هذا غشه لنفسه فكيف يسمع منه العاقل ويواليه[1].

---

(١) أغاثة اللهفان — ابن القيم.

يا حاسدا لى على نعمتى أتدرى على من أسأت الأدب

أسأت على الله فى حكمه لأنك لم ترضى بما وهب

فأخذاك الله بأن زادنى وسد عليك وجوه الطلب

وكقول الآخرة :

إنى نشأت وحاسدى ذووا عددٍ ياذا المعارج لا تنقص لهم عددا

إن يحسدونى على ما بى لما بهم فمثل ما بى مما يجلب الحسدا

وكقوله الآخر:

اصبر على حسد الحسود فإن صبرك قاتله

كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وروى الإمام أحمد فى مسنده أن رسول الله ﷺ قال: « ما رأيت جبريل عليه السلام إلا وهو صار» بين عينيه – أى مقضب خائف – فسألته عن ذلك فقال: ما ضحكت منذ خلقت النار. ثم سأله عن الرحمة التى أصابته من بعثته؟ فقال: كنت أخشى مغبة العاقبة مثل إبليس. حتى نزل عليك قول الحق تبارك وتعالى فى درجتى وصفتى عنده تعالى ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير: ٢٠ – ٢١] فأمنت.

وروى أن إبليس قال يارب أخرجتنى من الجنة لأجل آدم. وأنا لا اقدر عليه إلا بتسليطك. قال: أنت مسلط عليه وعلى أولاده. قال: زدنى. قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله. قال: زدنى. قال: صدورهم مساكن لك تجرى منها مجرى الدم. قال: زدنى. قال: أجلب عليهم بخيلك ورجلك.. أى استعن عليهم بأعوانك من راكبٍ وماشٍ وشاركهم فى الأموال. أى بحملهم على كسبها وصرفها فى الحرام. والأولادَ وعدهم.. أى المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة الباطلة وتأخير التوبة بطول الأمل.

وسُئل الشعبى: هل لإبليس زوجة؟ قال: ذلك عرس لم أشهده. ثم قرأ قول الحق تبارك وتعالى ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي ﴾ قال فعلمت انه لا يكون له ذرية إلا من زوجة. فقال: نعم.

وقال آدم: يارب قد سلطته علىّ فلا أمتنع عليه إلا بك. قال: وكلت لك الحفظة

من الملائكة. قال: زدنى. قال: الحسنة بعشر أمثالها. قال: زدنى. قال: لا أنزع منهم التوبة ما دامت أرواحهم فى أبدانهم وهكذا وضع إبليس الرجيم نفسه فى موقف المعادى والمتحدى لله عز وجل فى شأن هذا المخلوق.

كما أنه أقحم آدم فى تلك العداوة. رغم براءته الكاملة. فالموقف كله بين رب العالمين وبين إبليس. ولا شأن لآدم فيه من قريب ولا من بعيد. فالله تعالى هو الذى خلق آدم وهو الذى كرمه وأمر الملائكة بالسجود له. وإبليس هو الذى تأبى وامتنع من السجود. وتكبر على آدم. ولا دخل لآدم فى كل ذلك! فما السبب فى قول إبليس اللعين.. يارب قد أخرجتنى من الجنة لأجل آدم. ولا شك أنه الظلم والبهتان. ولذلك وقف الحق تبارك وتعالى بجانب المظلوم وفتح له باب التوبة والنجاة بابا من بعد باب.

● **اسكن أنت وزوجك الجنة:**

﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة: ٣٥]. كما قال له: ﴿ **فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ** ﴾ [طه: ١١٦ - ١١٩].

وسياق هذه الآيات أن خلق حواء كان قبل دخول آدم الجنة. ولكن حكى عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة أنهم قالوا: أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة. فكان يمشى فيها. وحشى ليس له فيها زوج يسكن إليها فنام نومة فاستيقظ. وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه. فسألها: ما أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولما خلقت؟ قالت: لتسكن إلىّ. فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء. قالوا: ولما كانت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شىء حى. وذكر أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ولئم مكانه لحما. وقال: آخرون أنها خلقت من نفسه. وأن كل نفس زوج خلقت من نفس زوجها ليسكن إليها. ويتم التلاحم والتجاذب بينهما فى كل أمور الحياة.

ولهذا يقول الشيخ الشعراوى رحمة الله عليه: يثور الخلاف بين الناس لعدم فهم طبيعة الخلق من الله سبحانه وتعالى. ذلك لأن الناس تحسب أن الرجل والمرأة

متنافسين ومتعاندين. ولكنهما في الحقيقة خلقا متكاملين أي يكمل كل منهما الآخر ولا يستغنى عنه قط. واقرأ قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ [الليل: ١ - ٤] فقد أراد الله تعالى أن يلفتنا إلى قضية التكامل بين الرجل والمرأة. كقضية التكامل بين الليل والنهار. فهما مختلفان في الطبيعة ولكنهما متكاملان في المهمة. فالنهار يملؤه الضوء وهو وقت السعى وراء الرزق والحركة. والليل تملؤه الظلمة وهو وقت السكون والراحة والنوم.. كلاهما أي الليل والنهار يختلفان في طبيعة مهمتهما في الكون ولكنهما مع ذلك متساويان ومتكاملان في آداء هذه المهمة أي يكمل كل منهما الآخر.

فلو أن الله تعالى جعل الزمن كله نهاراً لتعب الناس. لأنهم لا يجدون وقتا تسكن فيه حركة الكون ويستطيعون الراحة فيه. ولو خلق الزمن كله ليلاً ما استطاع الناس الحركة ولا العمل ولا السعى على الرزق. ولهذا يقول الحق تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٢]. فهي مهمة متكاملة وليست متعاندة وهذا واضح من حركة الحياة.

أيضا الرجل والمرأة خلقهما الله تعالى متكاملين وليسا متعاندين وأيضا متساويين وليسا متماثلين.. الرجل له مهمة ووظيفة تتفق مع صلابة عوده وخشونة خلقه من السعى على الرزق ورعاية زوجه وأولاده وتوفير أسباب الحياة الكريمة لهم.. والمرأة لها مهمة ووظيفة في الحياة. تتفق بدورها مع رقتها وأنوثتها وكرامتها من رعاية البيت وإنجاب الأولاد وتكون مسكنا للزوج عندما يعود إلى بيته متعبا من حركة الحياة. وهكذا حدد الله تعالى المهمة المتكاملة للرجل والمرأة. فكلاهما يكمل بعضه بعضاً.. لا الرجل يصلح لمهمة المرأة في انجاب الأطفال وتربيتهم والعناية بهم ورعاية البيت. ولا المرأة مهمتها الأساسية أن تسعى في سبيل الرزق لتوفر لقمة العيش للرجل.. وليس هذا على مستوى الأمة الإسلامية ولكنه القانون العام والسائد الذى وضعه الله سبحانه وتعالى على مستوى الكون كله.

ولا يوجد رجل يبقى فى البيت وامرأته تعوله وهو قادر على الكسب إلا نال احتقار الناس بما فيهم زوجته.. ولا توجد امرأة إلا تتمنى أن تعيش فى كنف وحماية رجل يوفر لها كل شيء ويرعاها كل الرعاية وتلك هى سنة الله فى خلقه بصرف النظر عن الإيمان وعدم الإيمان. لأنها طبيعة الخلق. فالمرأة تكرَّم وتصان والرجل يكد ويتعب ويرعاها.. فبالله عليك من الذى يكرم المرأة ومن الذى يطالبها بأعباء لا تتحملها عاطفتها وأنوثتها. وفى النهاية: فالمرأة إما أخت الرجل أو أمه أو زوجه أو ابنته. وهو إما والدها أو زوجها أو أخوها أو ابنها فلم كل هذه الفتن والصراعات[1].

وبعد أن تمت عملية الخلق يأمرهما تعالى ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ قيل الكرم وتزعم يهود أنها الحنطة. قال وهب: والحبة منها الين من الزبد وأحلى من العسل. وقيل النخلة أو التينه.. وكانت شجرة من أكل منها أحدث. ولا ينبغى فى الجنة حدث فليس فيها أماكن للحدث والقذارة ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ [البقرة: ٣٦] أى عن الجنة ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ أى من النعيم والنضرة والسرور. إلى دار التعب والكد والنكد. وذلك بما وسوس لهما وزينه في صدورهما. كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠ – ٢١] وفى موضع آخر ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى ﴾ [طه: ١٢٠]. أى هل أدلك على الشجرة التى إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم وبقيت فى ملك لا يُنتقص ولا يبيد؟ وهذا من التغرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع. كما قال تعالى: ﴿ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٢ – ٢٣].

يقول صاحب الظلال ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ تعبير يرسم صورة الحركة التى يعبر عنها. إنك لتكاد تلمح الشيطان وهو يزحزحهما عن الجنة ويدفع بأقدامهما فتزل

---

(١) انظر المرأة فى القرآن الكريم – الشعراوى.

وتهوى. وعندئذ تمت التجربة. ونسي آدم عهده وضعف أمام الغواية. وعندئذ حقت كلمة الله ووضح قضاؤه ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ وكان هذا إيذان بإنطلاق المعركة فى مجالها المقدر لها بين الشيطان والإنسان إلى آخر الزمان.

ونهض آدم من عثرته بما ركب فى فطرته. وأدركته رحمة ربه التى تدركه دائما عندما يثوب إليها ويلوذ بها ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وتمت كلمة الله الأخيرة وعهده الدائم مع آدم وذريته. عهد الإستخلاف فى هذه الأرض وشرط الفلاح فيها أو البوار. وانتقلت المعركة الخالدة إلى ميدانها الأصيل. وانطلقت من عقالها لا تهدأ لحظة وما تفتر. وعرف الإنسان فى فجر البشرية كيف ينتصر إذا شاء الإنتصار وكيف ينكسر إذا اختار لنفسه الخسار(١).

وفى الحديث: إن أباكم آدم كان فى الجنة. فلما بدت له سوأته خرج من الجنة فلقيته شجرة فأخذت بناصيته. فناداه ربه: أفرارا منى يا آدم؟ قال: بل حياء منك يارب مما جئت به(٢).

● **مدخل الشيطان للنفس:**

وقد لخص الله تعالى فى بلاغة رائعة مدخل الشيطان إلى النفس البشرية. حيث أورد لنا كيف أغرى الشيطان آدم بمعصية الله. حيث تم الإغراء بجملة واحدة حين قال له ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ إذن الإنسان يريد شيئين فى الدنيا.. حياة خالدة لا تنتهى ومالا وفيرا لا يفنى ولا يتأثر بكل ما ينفق الإنسان. مع عدم تأثر عمره بمرور السنوات.. فهو يريد شبابا دائما، وكنوزاً لا تعد ولا تحصى. ومن هنا كان مدخل الشيطان إلى النفس البشرية. فكل الآلهة الباطلة التى عبدها الإنسان على مر العصور واختلاف الأمكنة. كانت إما وهما دافع لأذى أو مرض يؤدى إلى الهلاك. أو وهما جالب للرزق والجاه فى الدنيا. وهى فى مجموعها لا تخرج عن ذلك أبدا. بل إن عبادة الناس للبشر تأتى أيضا من خلال هذين المدخلين.

---

(١) الظلال.
(٢) قصص الأنبياء – ابن كثير.

فهو إما يرجو رزقا يستمتع به أو صحة أو قدرة تطيل فى عمره وبذلك يتضح لنا مدخلين أساسيين من مداخل الشيطان إلى النفس البشرية لإغوائها عن منهج الله[1].

ولهذا بذل الإسلام جهده فى تهذيب هذه الغرائز وتعليتها وليس اقتلاعها فهذب فى النفس حب الدنيا. ولفتها إلى نهايتها المحتومة وحقيقتها الواضحة فيقول الرسول ﷺ للصحابة قبل كل صلاة: صلوا صلاة مودع. أى اجعلوا من صلاتكم تلك آخر صلاة تقفون فيها بين يدى مولاكم. وكأن ملك الموت يقف خلف أحدكم ينتظر انتهاءه من الصلاة ليقبض روحه. وهى كلمة نموذج يجب أن نحتذيها فى كل حياتنا. فإذا دخلت بيتك فادخل دخول مودع. وإذا خرجت من بيتك فاخرج خروج مودع. وإذا ذهبت إلى سريرك لتنام فنم نوم مودع. وإذا استيقظت من نومك فاستيقظ استيقاظ مودع. لأنه من يضمن لك. أن إذا دخلت بيتك أن تخرج منه؟ فكثير من الناس دخلوا بيوتهم وهم فى كامل الصحة والعافية ولم يخرجوا منها إلا إلى القبور. وإذا خرجت من بيتك من يضمن لك أن تعود إليه؟ فكثير من الناس خرجوا من بيوتهم وهم فى كامل الصحة والعافية ثم سقطوا فى طرقهم بمرض من الأمراض أو بحادث من الحوادث. ثم نقلوا إلى المستشفيات ومنها إلى القبور. دون أن يمروا على بيوتهم. وكذلك إذا ذهبت إلى سريرك لتنام من يضمن لك أن تستيقظ من نومك؟ وإذا استيقظت من نومك فمن يضمن لك أن تعود إلى فراشك؟

ولذلك يعلمنا الصادق المصدوق: أن إذا أردنا النوم فعلى أى هيئة نناء وعلى أى ذكرى ننام. هل ننام على ذكر الأطيان والعقارات أم الأموال والإستثمارات؟ لا. ولكن يعلمنا إذا أردنا النوم أن نتوضأ وضوءنا للصلاة ثم ننام على شقنا الأيمن. ونضع كفنا اليمنى تحت خدنا الأيمن ثم نقول: باسمك اللهم وضعت جنبى وبك أرفعه فإن أمسكت روحى - أى بالموت - فاغفر لها. وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين. وفى ذكر آخر: ألهم إنك خلقت نفسى وأنت تتوفاها. لك مماتها ولك محياها. فإن إمتها فاغفر لها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين. فإذا ما استيقظت يعلمك خير من خلق الخلاق محمد ﷺ أن تقول: الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور.

---

(١) معجزة القرآن - الشعراوى.

فتنام على ذكر الموت وتستيقظ على ذكر الموت. وتخرج من بيتك على ذكر الموت وتعود إليه على ذكر الموت، وكذلك فى كل أحوالك وأعمالك حتى تكون تقيا ومستعداً للقاء الله دائما.

ولهذا يروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد أن تولى الخلافة كان دائما ما يقول:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته — يبقى الإله ويودى المال والولدُ
لم تغنى عن هرمز يوماً خزائنه — والخلدُ قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له — والإنس والجن فيما بينها تردُ
أين الملوك التى كانت لعزتها — من كل أوب إليها وافد يفدُ
حوض هنالك مورود بلا كذب — لابد من ورده يوما كما وردوا

نعم فأين الملوك؟ وأين الرؤساء؟ وأين الزعماء؟ وأين القادة؟ وأين المشاهير؟ وأين الأغنياء؟ وأين. وأين؟ الكل إلى فناء.

يا ويح الدنيا ما تصنع — أكل حى فوقها تصرع
تزرعهم حتى إذا استووا — عادت إليهم تحصد ما تزرع

ومن قديم كان قس بن ساعدة يذهب إلى سوق عكاظ وهو أكبر أسواق مكة. وينظر إلى الناس وهم يتلاهون فى البيع والشراء، ثم يخطب فيهم قائلا: أيها الناس اسمعوا واعوا وإذا وعيتم فانتفعوا إن من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. إن فى السماء لخبراً. وإن فى الأرض لعبراً.. مهاد موضع وسقف مرفوع نجوم تمور. وبحارٌ لن تغور. ليل داج وسماء ذات أبراج. يُقسم قس، إن لله لدينا هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه. ما لى أرى الناس يذهبون - أى إلى المقابر - ثم لا يرجعون. أرضوا بالمقام فاقاموا؟ أم تركوا فناموا؟ ثم ينشد قائلا:

فى الذاهبين الأولين — من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً — للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها — يسعى الأكابر والأصاغر
أيقنت أنى لا مالة — حيث صار القوم صائر

«فهذه الدنيا خطرها يسير وأمرها حقير، وإنما هى لحظة واحدة يضرب فيها الموت ضربته فإذا ما للسماء للسماء، وما للأرض للأرض. ويا موت ما أنت وما تكون؟ ويا حياة ما أنت وما تكونين؟.. ويا موت ما أنت ويا أيها الجسد المسجى ما الذى سجاه؟ ويا ذا الجسد الصامت الساكن من أصمته وأسكنه؟ هذا الجسد الساكن لم لا يتحرك؟ الآن تأمل فيه مليًا وأقبل عليه طويلا وتأمل في حاله. لقد كان منذ قليل مقبلاً مدبرا، ومحبًا مبغضا، لقد كان غاضبًا وحالما وناطقاً وصامتا. فليت شعرى ما دهاه ما الذى خرج منه ولم يعود إليه».

ويروى أن أعرابيًا كان يسير على جمل له فى الصحراء، فخر الجمل ميتًا. فنزل الأعرابى عنه. وجعل يطوف به ويتفكر فيه ويقول له: ما لك لا تقوم؟ ما لك لا تنبعث؟ هذه أعضاؤك كاملة وجوارحك سالمة. ما شأنك؟ ما الذى كان يحملك؟ ما الذى كان يبعثك؟ ما الذى صرعك؟ ما الذى عن الحركة منعك؟ ثم تركه وانصرف متفكرًا فى شأنه متعجبًا من أمره. فهى لحظة جديرة بالتأمل والتفكير الطويل، ولهذا وقف الحسن أثناء تشييع جنازة وجيهًا من الوجهاء. أو عظيمًا من العظماء. فلما رآه قد وضع فى قبره، ثم ردم عليه بالتراب أو أغلق عليه الباب. نظر إليه طويلاً ثم قال كلمة يجب أن تُحفظ وتُدرك جيداً حيث قال: إن شيئًا هذا آخره لحقيق بأن يزهد فى أوله – وهى الدنيا – وإن شيئًا هذا أوله – أى الآخرة – لحقيق بأن يخاف من آخره.

ياراقد الليل مسروراً بأوله ... إن الحوادث قد يطرُقن أسحارا
أفنى القرون التى كانت منعمة ... كر الجديدين إقبالاً وإدبارا
كم قد أبادت صروف الدهر من ملك ... قد كان فى الدهر نفاعًا وضرارا
يا من يعانق دنيا لا بقاء لها ... يُمسى ويُصبح فى دنياه سفارا
هلا تركت من الدنيا معانقة ... حتى تعانق فى الفردوس أبكارا
إن كنت تبغى جنان الخلد تسكنها ... فينبغى لك أن لا تأمن النارا

وإن الإنسان ليتعجب كل العجب كيف ينسى الإنسان الموت وكيف ينسى الإنسان القبر؟ وهو الحقيقة الواضحة الجلية كالشمس فى ضحاها وكالقمر إذا تلاها وكالنهار إذا جلاها. فكم من عظيم هلك ومن قوى أفل ومن حبيب غاب. ولكنى

أتذكر قول العلماء: أن ذلك ليتم العمران فلو لم ينسى الإنسان الموت. وتذكره على الدوام وعاش لحظته دائما. لما وجد دافعًا يدفعه للبناء. ولم يجد حافزًا له نحو التحضر والإرتقاء وبهذا يتراجع عن الركب.

ولكنى أجد هناك معنى أعمق من ذلك بكثير وأنا واقف هناك بين المقابر والأجسام البالية والعظام النخرة.. ألا وهو أننا لو عشنا تلك اللحظة بعمقها وحقيقتها لهانت علينا الدنيا. ولصارت هينة رخيصة علينا جميعًا. وفى تلك اللحظة تفقد قيمتها فى الميزان. لأن الذى سيبيعها ويتخلى عنها يشترى الجنة. وهنا تصبح الجنة لا قيمة لها لأن ثمنها زهيد رخيص.. أما إذا نسينا حقيقتها واحتفظت الدنيا بقيمتها فإن من يتخلى عنها فى هذه الحالة. فقد تخلى عن عظيم. تخلى عن غال ونفيس. فيستحق عند ذلك الجنة الغالية «آلا إن سلعة الله غالية. آلا إن سلعة الله الجنة».

وإنى لأتساءل أحيانًا هل من الممكن أن يطلب منا النبى الكريم ﷺ مع ما يحمله من خلق وفضل اعترف به الجميع. وكل إخوانه الأنبياء.. هل من الممكن أن يطلب منا وأن يطلبوا منا أن نتخلى ونزهد ونترك ما فى إيدينا من متاع الدنيا وأن نستعمله فى الخير. بغير مقابل؟ وما الذى يعود على كرام أمثالهم من وراء ذلك؟ ولا شك أن الإجابة مستحيل. فهو وهم عليهم السلام يطلبون منا ذلك حتى نتحصل على ما هو أفضل من ذلك بكثير فى معيته ومعيتهم عند رب العالمين فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه ... فكل ما فات فليس بضائر
فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة ... ولا وزن رفٍ من جناح لطائر
فلم يرضى بالدنيا ثوابا لمؤمن ... ولم يرضى بالدنيا عقابا لكافر

● **حقارة الدنيا. والموت:**

فيكفينا من الدنيا أن آدم عليه السلام نزل إليها عقوبة. أى لما عصى ربه وأكل من الشجرة كان عقابه أن ينزل إلى الدنيا. وأن الشيطان طلبها من بدايتها إلى نهايتها وأعطاها الله له ولم يستكثرها عليه وذلك لأنها لا تساوى عنده تعالى جناح بعوضة

فلو كانت تستحق عنده جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء. وذلك حيث قال الشيطان ﴿ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ ولا شك أن الدنيا دار هى قريبة العرس من المآتم ولهذا يقول الأمام الشافعي رحمه الله:

فلا حزنٌ يدوم ولا سرورٌ ... ولا بأسٌ عليك ولا رخاءُ

إذا كنتَ ذا قلبٍ قنوعٍ ... فأنت ومالك الدنيا سواءُ

ويقول رسول الله ﷺ: « يقول ابن آدم مالى مالى وليس له من ماله إلا ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى أو تصدق فأبقى.. قالوا وما سوى ذلك يا رسول الله – أى العقارات والأموال والإستثمارات – قال: وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس »(١) فالإنسان ليس له من ماله إلا ما انتفع به أما غير ذلك فهو كمجرد الحارس الأمين عليه الذى لا يستطيع أن ينفق منه شيئا وربما بخل وقتر على نفسه حتى يقول القائل: « خايف من الفقر وعايش فيه » وذلك حتى يحفظه كاملا لورثته.

وذو حرص تراه يلم وفرا ... لوارثه ويدفع عن حماه

ككلب الصيد يمسك وهو طاوٍ ... فريسته ليأكلها سواه

ولهذا كان ابن عباس رضى الله عنهما إذا رأى درهما فى يد رجل يقول له: ليس درهمك حتى يخرج من يدك.. وكان سيدنا داود عليه السلام يستعيذ بالله من أربع أشياء: اللهم إنى أعوذ بك من ولد يكون على سيدا. وأعوذ بك من مال يكون عذابه فى قبرى ومنفعته لغيرى وأعوذ بك من جار سوء إذا رأى علىّ حسنة أخفاها وإذا رأى علىّ سيئة أذاعها وأفشاها وأعوذ بك من امرأة تشيبنى قبل المشيب.

ويقول الرسول ﷺ: يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد. يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله.. ويبقى عمله(٢).

إذا المرأ لم يعتق من المال نفسه ... تملكه المال الذى هو مالكه

آلا إنما مالى الذى أنا منفق ... وليس لى المال الذى أنا تاركه

إذا كنت ذا مال فبادر به ... الذى يحق وإلا استهلكته مهالكه

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الشيخان.

وقال عيسى عليه السلام:

من ذا الذى يبنى على صــهوة الأمواج دارا

تِلـكمُ الدنيـــا فـلا تجعـلـوها قــرارا

وهذا ملك من الملوك يمرض مرضًا شديداً ويشعر بدنو أجله وبأن الموت قد اقترب منه. فأمرهم أن يكتبوا على شاهد قبره إبياتا يعتبر بها الناس ولا يغتروا بالدنيا ومتاعها الذائل.. وهى:

سلامٌ على أهل القبور الدوارس	**كأنهم لم يجلسوا فى المجالسِ**
ولم يشربوا من بارد الماء شربةً	**ولم يأكلوا من بين رطبٍ ويابسِ**
فقد جاءنى الموتُ المهول بكسرةٍ	**فلم يُغن عنى آلف آلف فارسِ**
فيا زائر القبر اتعظ واعتبر بنا	**ولا تكن فى دنيا الغرورِ بآنسِ**

● الزهد فى الدنيا:

ولكل ذلك وجدنا أناساً تربوا على الزهد فى الدنيا. وابتغاء وجه الله. مثل عمرو ابن عبيد الذى وصفه ابن السماك بقوله: كان عمرو بن عبيد إذا رأيته مقبلاً توهمته قد جاء من دفن والديه. وإذا رأيته متكلمًا توهمت أن الجنة والنار لم يخلقا إلا له. وكان صديقًا لأبى جعفر المنصور الخليفة العباسى قبل أن يلى الخلافة. فلما وليها طلب إليه أن يُعينه بأصحابه. فقال له عمرو: إرفع لواء الحق يتبعك أهله. وكان المنصور ينظر إليه وهو خارج من عنده وقد عرض عليه الدنيا فرفضها، فيقول:

كلكم يمشى رويد كلكم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد

فهم لا يطلبون الدنيا ولا يلهثون وراءها ولا يريدونها بعلمهم. وهم مع ذلك يدعون الناس إلى العلم والعمل والرقى والإتقان لرفع شأن أمة الإسلام فى العالمين. لأن الإسلام جاء ليبنى حضارة ترى فيها البشرية عظمته محققة. هذا رغم الأمانة والزهد الكامل فيها.

فقد أرسل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عُمير بن سعد واليًا على حمص فذهب إليها. ومكث بها عامًا كاملا لم يرسل خلاله لأمير المؤمنين بأية أموال أو أخبار

فأرسل إليه يستدعيه ليعرف أخباره ويطمئن على أحوال رعيته. فأقبل عمير على الخليفة، وهو أشعث أغبر تظهر عليه وعثاء السفر. ويحمل على كتفه اليمنى جراب وقصعة. وعلى كتفه اليسرى قربة صغيرة فيها ماء. وفي يده عصاً يتوكأ عليها. فلما دخل على الخليفة ألقى عليه السلام. فرد عليه. ثم سأله عن شأنه. فقال شأني ما ترى.. ألست تراني صحيح البدن طاهر الدم معي الدنيا أجرها بقرنها! فقال عمر: وما معك من الدنيا؟ قال عمير: معي جرابي أحمل فيه زادي وقصعتي آكل فيها. وإداوتي أحمل فيها وضوئي وشرابي وعصاي أتوكأ عليها وأجاهد بها عدواً إن عرض لي.. فوالله ما الدنيا إلا تبع لمتاعي.

فقال له: أجئت ماشيا؟ قال نعم! قال: أو لم تجد من يتبرع لك بدابة تركبها؟ قال< إنهم لم يفعلوا وإني لم أسألهم.. ثم سأله عن أحواله وأحوال رعيته. وفي النهاية أراد أن يُجدد له عهده في ولايته. إلا أن عمير رفض وتنازل عن الولاية. وقال: يا أمير المؤمنين تلك أيام قد خلت. لا عملت لك ولا لأحد بعدك.

والكلام في الزهد يطول ولا ينتهي. رغم الجهاد الطويل في بناء حضارة نالت انبهار كل المنصفين على مر العصور حتى الآن. فالدنيا في اليد، والدين في القلب حتى يأتينا اليقين بإذن الله رب العالمين.

● **توبة الله على آدم:**

عن ابن عباس قال: قال آدم: يارب.. ألم تخلقني بيدك؟ قيل له: بلى. ونفخت فيَّ من روحك؟ قيل له: بلى. وعطست فقلت يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك؟ قيل له: بلى. وكتبت عليَّ أن أعمل هذا؟ قيل له: بلى. قال: أفرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم(1).

وروى الحاكم أن رسول الله ﷺ قال: لما اقترف آدم الخطيئة. قال يارب أسألك بحق محمد إلا غفرت لي. فقال الله تعالى: فكيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد؟ فقال: يارب لأنك لما خلقتني ونفخت فيَّ من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا. لا إله إلا الله. محمد رسول الله. فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. فقال الله: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إليَّ. وإذ سألتني بحقه

(1) رواه الحاكم وقال صحيح.

فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك »[1]. وقد طعن علماء الحديث فى صحته لأن الله جل وعلا يقول: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ فكيف يقول لآدم عليه السلام: ولولا محمد ما خلقتك.. والواقع أنه بالنظر الدقيق للآية والحديث يتضح أنه لا تعارض بينهما. إذا أن الآية قررت أن غاية الخلق وهدف الإيجاد هو العبادة. ولكن من الذى حقق تلك العبادة بصورتها الكاملة ودرجتها المثلى حتى اجتمع فيه بنيان النبوة وهَدى المرسلين حتى قال الشيخ جاد الحق رحمه الله: « ذلك أن نفس ذلك الوليد. قد حملت فى مجموعها جماع ما حملت به الأنفس الإنسانية من جمال وكمال. ولو أن فضائل أهل التقوى والعلم والحكمة والحلم من لدن آدم إلى يوم القيامة لو اجتمعت وجعلت فى إنسان واحد ما بلغت مثل نفسه ﷺ. ذلك أن نفسه الذكية بخلق الله. قد اكتملت وتفردت حتى صارت هى النفس الإنسانية الكبرى وكما قيل: كان فى آدم سر وجود الإنسانية وكان فى محمد ﷺ سر كمالها[2].

وذلك حتى أصبح ﷺ رمزًا للعباد جميعًا ومندوبهم ونائبهم فى حضرة رب العالمين. فى ليلة الإسراء والمعراج عندما إلتقت البشرية بالألوهية لأول مرة فى التاريخ.. الألوهية ممثلة فى الإله المعبود بحق سبحانه.. والعبودية ممثلة فى رمز العباد الذى حقق العبادة والعبودية له سبحانه بكل حب وعمق حتى جمع فضل الجميع لينوب عنهم، ويصبح هو ممثلهم. ورمز الخيرية فى جميع بنى آدم. ليقف الشيطان الرجيم أمام هذا الصرح من بنى آدم مبهوتًا مرجومًا صاغرًا مدحورًا.. لا لشىء إلا أنه يحقق إرادة رب العالمين وقوله: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

وعندما يقول الحق تبارك وتعالى لآدم عليه السلام: ولولاه ما خلقتك فلا تعارض مع أن غاية الخلق هى العبادة.

وقال ﷺ: حاج موسى آدم عليهما السلام: فقال له: أنت الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه. ثم أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم.. قال آدم: ياموسى أنت الذى أصطفاك الله برسالاته وبكلامه. أتلومنى على أمر كتبه الله على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة. قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى »[3].

(١) رواه الحاكم والبيهقى وضعفه.
(٢) وهى نقلا عن الرافعى والعقاد رحمهما الله.
(٣) رواه أحمد والبخارى.

وقد روى هذا الحديث بروايات متعددة مدارها فى الصحيحين وغيرهما: على أنه لامه على إخراجه نفسه وذريته من الجنة. فقال له آدم: أنا لم أخرجكم وإنما أخرجكم الذى رتب الإخراج على أكلى من الشجرة. والذى رتب ذلك وقدره قبل أن أخلق هو الله رب العالمين. فأنت تلومنى على شيء ليس له نسبة إليّ أكثر من أنى نُهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها. وكون الإخراج مترتبًا على ذلك ليس من فعلى. فأنا لم أخرجكم ولا نفسى. وإنما كان هذا من قدر الله تعالى وله الحكمة فى ذلك. فلهذا حج آدم موسى ﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ** ﴾[1] [طه: ٨٢].

- **لماذا غفر الله لآدم:**

وهنا يتبادرُ إلى الأذهان سؤال.. لماذا غفر الله لآدم وتجاوز عنه ولم يغفر لأبليس؟

والواقع أن الإجابة واضحة جليه. من وضوح الفرق بين الذنبين. لأن إبليس فعل الذنب دون أن يسول أو يغرر به أحد. فذنبه نابع من ذاته متدفق من نفسه. التى غلبت عليها شقوتها وصبغها نفاقها وكبرها وحسدها. فلم يغرر به أحد ولم يزين له أحد. وإنما هى طبيعته وحقيقته التى أبت فى هذا الموقف إلا أن تبوح وتفصح عن نفسها. أما آدم عليه السلام ففعل ما فعل ليس من ذاته مثل إبليس وإنما فعله نتيجة لتغرير وتزييف حتى أقسم له الشيطان بالله على صواب ما دعاه إليه. وعلينا أن نعلم أن قبول آدم ونسيانه كان من قدر الله لحكمة يعلمها.

وما سمى الإنسان إلا لنسيه
ولا القلب إلا أنه يتقلب

كما أن إبليس أعقب معصيته بالكبرياء والتمادى وإعلان العداوة والتحدى ليس لآدم فحسب وإنما لله رب العالين، بصورة سافرة. توضح وتبوح عن مخزون نفسه الفاجرة الكافرة المنافقة فى أدكن درجات هذه الصفات ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن**

---

(١) وانظر قصص الأنبياء – ابن كثير.

كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [النحل: ٣٣ - ٣٤].

أما آدم عليه السلام فأعقب معصيته بالحياء والخوف والندم الذى تملك عليه مشاعره وقلبه ووجدانه حتى راح يتطلع إلى التوبة والرجوع. وجعل يقلب وجهه فى السماء مستجيراً بصفات الجمال واحدة تلو الأخرى.. فيقول: يا تواب ياغفور يارحمن يارحيم ياعفو ياقدير ياغنى ياكريم حتى نالته رحمة الله بل وعلمته كيف يتوب.. ليتوب الله عليه وهو خير التوابين. وهو خير الراحمين.

قال بعض العارفين: سابق العناية لا يؤثر فيه حدوث الجناية ولا يحط عن رتبة الولاية. فمخالفة آدم التى أوجبت له الإخراج من دار الكرامة. لم تخرجه من حظيرة القدس. ولم تسلبه رتبة الخلافة. بل أجزل الله له فى العطية وعمه بعظيم المغفرة.

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

وهى صفات التواضع والإنابة والذل والمسكنة، التى تجلت واضحة فى أخلاق وصفات سيد بنى آدم عليه السلام ورمزهم فى عبادة رب الأنام ﷺ.

● **الخطيئة والتوبة:**

وأخيرا تجىء فكرة الإسلام عن الخطيئة والتوبة.. إن الخطيئة فردية والتوبة فردية فى تصور بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض. ليست هنالك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده - كما تقول نظرية الكنيسة - وليس هنالك تكفير لاهوتى. كما تقول به الكنيسة.. أن عيسى عليه السلام - الله أو ابن الله بزعمهم - قام بصلبه تخليصا لبنى آدم من خطيئة آدم. كلا. خطيئة آدم كانت خطيئة شخصية. وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية والطريق مفتوح للتوبة فى يسر وبساطة. وهو تصور مريح صريح. يحمل كل إنسان وزره. ويوحى إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

حكى أن رجلا فى زمن موسى عليه السلام كان لا يستقيم على التوبة. فكلما تاب أفسد. فمكث على ذلك عشرون سنة. فأوحى الله إلى موسى عليه السلام:

(١) الظلال.

أن أبلغ عبدى فلان أنى قد غضبت عليه. فلما أخبره موسى عليه السلام جزع جزعا شديدا. وخرج إلى الصحراء وجعل يبكى ويقول: إلهى أنفذت رحمتك. أم ضرتك معصيتى. أم بخلت على عبادك. أم ذنبى أعظم من عفوك؟ والكرم من صفاتك. واللئم من صفاتى. فهل تغلب صفتى صفتك. وإذا حجبت عبادك عن رحمتك فمن يرجون. وإن طردتهم فلمن يقصدون. إلهى إن كانت رحمتك قد نفدت وأبيت إلا عذابى فاحمل علىّ ذنوب جميع عبادك فإنى قد افتديتهم بنفس. فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام أن أبلغه أنى قد غفرت له بعد ما عرفنى بكمال القدرة والعفو والمغفرة. وذلك لأنه دعاه سبحانه بتنزيهه عن المستحيلات فى حقه تعالى الله عنها علواً كبيراً.

إلهى لا تعذبنى فإنى ... مقربا لذى قد كان منى
ومالى حيلة إلا رجائى ... بعفوك إن عفوت وحسن ظن
فكم من ذلة لى فى الخطايا ... وأنت علىّ ذو ستر ومنِ
إذا فكرت فى ندمى عليها ... عضت أناملى وقرعت سنى
يظن الناس بى خيرا وإنى ... أشر الناس إن لم تعفو عنى

وروى أن رجلا. يؤمر به إلى النار بعد أن تثقل سيئاته وتطيش حسناته. فلما وصل إلى ثلث الطريق التفت. فلما وصل إلى نصف الطريق التفت. فلما وصل إلى ثلثى الطريق إلتفت. فأمر الله الملائكة أن يسألوه.. لماذا التفت ثلاث مرات؟ وهو سبحانه أعلم.. فقال الرجل: لما وصلت إلى ثلث الطريق ذكرت قولك: ﴿ **وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ** ﴾ فالتفت رجاء المغفرة والرحمة. فلما وصلت نصف الطريق ذكرت قولك: ﴿ **وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ فالتفت.. فلما وصلت ثلثى الطريق ذكرت قولك: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ فازداد رجائى فى عفوك ومغفرتك فالتفت. فغفر الله له[١].

والأحاديث فى باب التوبة لا تحصى فعن ابن عباس رضى الله عنهما: أن ناساً من

(١) الإمام القشيرى سيرته وآثاره – إبراهيم بسيونى.

أهل الشرك كانوا قد قتلوا فاكثروا وزنوا فاكثروا. فأتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن. لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل ﴿ **وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا** ﴾ [الفرقان: ٦٨ – ٧١].

فلا يقنطن عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت. فإن باب التوبة والمغفرة والرحمة واسع ولا يغلق ﴿ **أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ** ﴾ وقال عز من قائل: ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [النساء: ١١٠] قال الحسن البصرى: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه. وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة. وليس العجب من السيارة طلبوا الماء فوجدوا مثل يوسف. ولكن العجب من عاص طلب المغفرة. فوجد الله عفوا رحيما.

وقد روى الإمام أحمد إحاديث كثيرة تدل على قول الرسول ﷺ: « والذى نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم. والذى نفسى محمد بيده لو لم تخطئوا لجاء الله عز وجل بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم »[1].

وقال رسول الله ﷺ: « يؤتى برجل يوم القيامة. فيقول الله عز وجل للملائكة نحو عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها. فيقال له: عملت يوم كذا.. كذا وكذا، وعملت يوم كذا.. كذا وكذا. فيقول: نعم. لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا.. حتى يظن الهلاك. فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة.. فيقول: يارب إن لى أعمالا لا أراها هنا – يعنى الكبائر – ثم ضحك رسول الله حتى بدت نواجذه »[2].

يامن يجيب المضطر فى الظلم — ياكاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا — وأنت ياحى ياقيوم لم تنم

---

(١) رواه أحمد. (٢) رواه مسلم.

أدعــوك ربى خائـفـا هائـمــا قلقــا فارحــم بكـائى ياذا البيت والحـــرم
إن كان جـودك لا يرجوه ذو ســـقم فمـن يجـود على العاصين بالكـــرم
ألا أيهــا المقصــود فى كـل حاجتــى شكوت إليك الضر فارحم شـكـايتى
ألا يارجــائى أنت تكشـف كربتــى فهب لى ذنوبى كلها واقضى حاجتى
أتيـت بأعمــال قبــاح رديـــئة وما فى الورى عبـد جنى كجنـــايتى
أتحرقنـــى بالنــــار ياغـايــة المنــى فأين رجــــائى ثــم أيــن مخافتــى

لكل إنسان شيطان:

حدث عروة بن الزبير: «أن عائشة زوج النبى ﷺ حدثته أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلا فغارت عليه. فجاء فرأى ما تصنع. فقال ما لك ياعائشة أغرت؟ فقالت: ومالى لا يغار مثلى على مثلك؟ فقال: أوَ قد جاءك شيطانك؟ قالت: يارسول الله أوَ معى شيطان؟ قال: نعم. قالت ومع كل إنسان؟ قال: نعم. قالت: ومعك يارسول الله؟ قال نعم.. ولكن ربى عز وجل أعاننى عليه حتى أسلم»(١).

قال الخطابى: «عامة الرواة يقولون. فأسلم على مذهب الفعل الماضى. إلا سفيان ابن عينية. فإنه يقول: فأسلم من شره. وكان يقول الشيطان لا يسلم. وهو قول حسن ويظهر أثر المجاهد لمخالفة الشيطان. إلا أن حديث ابن مسعود كأنه يرد قول ابن عيينة: ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة. قالوا وإياك يارسول الله. قال وإياى ولكن الله عز وجل أعاننى عليه فلا يأمرنى إلا بحق. وفى رواية. فلا يأمرنى إلا بخير»(٢) وظاهره إسلام الشياطين. إلا إبليس بالطبع. ويحتمل القول الآخر.

وعن صفية بنت حى زوج النبى ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ معتكفا فأتيته أزوره. ليلا. فحدثته ثم قمت لأنقلب - أى لأعود - فقام معى ليردنى إلى منزلى. فمر رجلان من الأنصار. فلما رأيا رسول الله أسرعا. فقال لهما: على رسلكما إنها صفية بنت حى. فقالا: سبحان الله. قال: إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم.. إنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شراً. أو قال: شيئًا»(٣) قال الشافعى رحمه الله:

---

(١) (٢) رواه مسلم. (٣) رواه الشيخان.

خاف النبى ﷺ أن يقع في قلوبهما شيء فيكفرا. وإنما قاله شفقة منه عليهما لا على نفسه.. ولعل فى ذلك رداً على من يتقول فى مسألة زواج النبى ﷺ لأنه لو كان فى ذلك شبهة لألقى الشيطان بذلك فى قلوب المرجفين والمشككين ولما مرت فى المجتمع مرور الكرام.

وظاهر الحديث أن الله تعالى جعل للشيطان قوة وقدرة على الجرى فى باطن الإنسان وفى مجارى دمه.. ويحتمل أن يكون من قبيل الاستعارة لكثرة إغوائه ووسوسته. فإنه لا يفارق الإنسان كما لا يفارقه دمه وقيل: إنه يلقى وسوسته فى مسام لطيفة من البدن فتصل إلى القلب.

* * *

الفصل الثانى

إبراهيم عليه السلام والأصنام

- الإنسان بفطرته يبحث عن الله.
- الله تعالى أعلى من الإدراك.
- عبادة الأوثان.
- إبراهيم عليه السلام وعبادة الأصنام.
- إبراهيم عليه السلام يحطم الأصنام.

وأستطاع الشيطان أن يصيب عقائد بنى آدم بالعطب والفساد حتى عبدوا غير الله. ففى زمن نوح وإبراهيم عليهما السلام عبدوا الأوثان والأصنام وفى زمن موسى عليه السلام عبدوا الملوك والحكام وفى زمن عيسى عليه السلام عبدوا القوانين والأسباب. ولكن الله تعالى تداركهم برحمته فأرسل الرسل ليصححوا للناس عقائدهم ويعيدوهم إلى طريق الهداية والرشاد. فهذا خليل الله إبراهيم عليه السلام يحطم الأصنام. وهذا كليم الله موسى عليه السلام يدمر فرعون والمتألهين من البشر. وهذا عيسى عليه السلام يخرق الأسباب والقوانين بإذن الله. ليدل الناس على أن الله هو الفعال لما يريد. لأنه تعالى مُسن القوانين ومُسبب الأسباب. ومع مسن القوانين لاقانون. ومع مسبب الأسباب لا أسباب. ومع مكيف الكيفيات لا يقال كيف.

فكيف تم ذلك؟ وكيف عالج الحق تبارك وتعالى هذه الأمور الشركية؟.

هذا ما سنعرضه فى الفصول الثلاثة القادمة. حيث سنعرض فى بساطة ويسر طرق الشيطان فى الإغواء وطرق الله فى المعالجة. من خلال إرسال الرسل الذين يردون الناس إلى سبيل الحق وساحة الصدق.

● **الإنسان بفطرته يبحث عن الله:**

لا شك أن الكون بكل ما فيه من آلاء وآيات ونعم تستعصى عن الإدراك تلفت نظر وانتباه كل ذى بصر أو بصيرة. نحو التأمل والتفكير العميق فى غاية هذا الوجود. وفى محاولة معرفة الخلاق العليم الذى أوجده وأحكم خلقه وأبدع صنعه بهذا الجمال وهذه الضخامة. فلو اجتمع كل علماء الطبيعة والأحياء والكيمياء والفلك والطب ومختلف فروع العلم لكى يدركوا ما فى الكون من إبداع وترتيب وقدرة لما استطاعوا أن يحيطوا ولو بجزئية من أجزاء مخلوق من المخلوقات. ولعادوا حاسرين عاجزين. فضلا عن خلقه وإبداعه.

فالسماء وما فيها والأرض وما فيها وما عليها والفضاء وما يحتويه والبحار والأنهار. والأحياء الزاحفة والطائرة والتى تمشى على رجلين أو أربع.

وكل ذلك يدل على تناسق وترتيب يستحيل معه العبث كما تقدم. ويحرك الإنسان ويحدو به منذ بدأ الخليقة نحو تحسس الغاية التى من أجلها خُلق الوجود. والتطلع إلى معرفة الخلاق العليم الذى أبدع وصور. ولكن العقل والحواس. تقف

عاجزة عن إدراك تلك المخلوقات نفسها فكيف تدرك الخالق سبحانه وتعالى . . فلو فكر الإنسان فى نهايات السماء لوقف عاجزاً . ولو فكر فى حقيقة الروح لوقف عاجزاً ولو فكر فى معانى الموت لوقف عاجزاً . فكيف يتطلع من وقف عاجزاً عن إدراك المخلوقات من حوله . وفى حقيقة نفسه . إلى إدراك الخلاق العليم المبدع لكل ذلك الإعجاز .

فالعقل يصل بنا إلى إدراك وجود الخالق وضرورته ولكنه لا يدخل بنا عليه . ففى كل تلك الآيات دلالة وعلامة على وجوده سبحانه . ولكن ما هو اسمه؟ وما هى صفاته؟ وما هى مطلوباته؟ لا أحد يعلم إلا هو سبحانه . . وليس عدم الإدراك دليلٌ على انعدام الوجود . . لأننا كما سبق ننتفع بأشياء كثيرة لا ندرى كنهها أو حقيقتها فمثلاً الروح والكهرباء والجاذبية والأثير . فكل ذلك ما هو؟ لا ندرى ولكننا ندرك آثارها فى حياتنا ومن حولنا .

علم عليم وعقل عاقل اختلفا	**من ذا الذى قد أدرك الشرفا**
العلم قال أنا أحرزت غايته	**والعقل قال أنا الرحمن بى عرفا**
فأفصح العلم أفصاحا وقال له	**بأينا الله فى فرقانه اتصفا**
فبان للعقل أن العلم سيده	**فقبل العقل رأس العلم وانصرفا**

ويضرب الشيخ الشعراوى لذلك مثلاً : فلو أن مجموعة من الأشخاص يجلسون فى غرفة . ثم طرق طارق الباب فالكل يعلم ويوقن أن هناك طارق بالباب . ولكن من هو هذا الطارق؟ وهل هو رجل أم امرأة؟ وما هى حاجته؟ فلا أحد يعلم . . ولو حاولنا أن نخمن شخصه أو أن نحدد صفاته لاختلفنا فى ذلك كل الاختلاف . فإذا أردنا أن نصل إلى اليقين فى أمره . فعلينا أن نفتح الباب . لنعرف الحقيقة من خلاله هو . ولله المثل الأعلى . لأن العقل والحواس تعطينا مقدمات لا حصر لها على وجود الخلاق العليم وضرورته . ولكن هذا العقل وتلك الحواس لا تدخل بنا عليه . لكى تعرفنا صفاته التى تتعالى عن الإدراك .

فإذا أردنا أن نتعرف عليه سبحانه . فعلينا أن ننتظر منه رسولاً ووحيًا يقدم لنا المعرفة الصحيحة . . ومن هنا وجد الخلل . فالإنسان لا ينتظر ويظن أنه قادرٌ على الإدراك . فيدخل ويلج الباب . وهو لا يدرى أنه يدخل على المستحيل . فتتناوبه

الخيالات والشطحات والتخمينات ومع ذلك يظن أنه على شيء. ومن هنا وجدت كل تلك العبادات والمعبودات. فالكل يتحسس ويحاول ولكنه لا يملك إلا الظن.

فمرة نجد الإنسان يعبد النجوم والكواكب ويظن أنها رموز لقوى خفية تحركها وتضبط شئونها. وتارة يعبد ما يخاف ظنًا منه أن عبادته له سوف تقيه شروره. وتارة يعبد ما يحب ويرتجى نفعه استكثارًا لخيره. وهو يظن أن لكل ظاهرة من ظواهر الطبيعة إلها يحكمها وينظم أمورها. فالسماء إله. وللأرض إله. وللخير إله وللشر إله وللرياح إله وللمطر إله، وهكذا تعددت الآلهة بتعدد ظواهر الطبيعة. وهم لا يدركون بعد بعقولهم القاصرة. أنه لا يوجد سوى إله واحد هو خالق الجميع ومبدع الجميع والكل محتاج لمدده ورزقه وقدرته. ولو منع عنهم رزقه لماتوا جوعًا وعطشًا من فورهم.

سـائلوا العين هل ترين الله	هل ترين الذى كسا الكون جاها؟
هل ترين الذى كسا الكون نوراً	فوق نور بحيث لا يتناهى؟
هل ترين الذى أراك جمالاً	يمتع الروح والسماء بناها
سائلوا العين هل ترين قديراً	بدأ الخلق نطفة سوها؟
وبنى الكون فى نظام عجيب	يبهر الناظر الذى يتباهى
سائلوا العين هل ترين حكيما	لا تراه العيون لكن يراها؟
ليس لله فى الخلائق مثل	فإذا كان لا يكون إلهـا؟
هو فى الذات والصفات نزيه	عن شبيه إذا المعاند شاها
أيها العقل قد عراك قصور	فهذه الأرض لا تريك مداها
وكذا الأفق فيه كل عجيب	جعل الفكر فيه حار وتاها
وكذا أنت أنت سر عجيب	لست تدرى فكيف تدرى الله؟
أيها الفكر سبح الله واذكر	وتأمل فى كونه تتناهى
وتوسل به تجده نصيراً	لك فى الضيق إذ يرى لك جاها
من قديم الزمان والناس طرا	يعبدون طعاما وطينا ثم ناراً

يقدسون لظاها

ثم عــجــلاً له خــوارٌ وجــديًا	ثم شـمـسًـا يـراقـبـون ضـحـاها
كل مـا يـعـبـدون حـاشـاك وهمـا	وهل لدى الوهم قـدرة نغـشـاها
لا. ولكن لديه عــجــز وذل	وهـوان فــمــا أجـل الله

● **الله تعالى أعلى من الإدراك:**

يقـول الشـيـخ عـبـد اللطيف المشتهرى رحـمـه الله: إنا نؤمن بالجـن والملائكـة ولا نعرف عن حقيقتهم شيئًا. ونؤمن بالروح ولا نعرف شيئًا عن بدايتها ونهايتها. وكيف نزلت إلى الجنين. ولا كيف صعدت عند الموت. وإذا كنا الآن لا نعرف طبيعة الكهرباء ولاسر النوم ورؤاه. ولم ندرك من عظمة الكون إلا ما تدرك النملة من سطح جبل شاهق مديد. بل لم ندرك من خفايا نفوسنا وأعضائنا ومشاعرنا وإبداع خلقنا. بدنًا ونفسًا وعقلاً وقلبًا وروحًا.. إذا كنا كذلك كيف نحيط برب الملك والملكوت. وما نحن إلا صنع الله. ولا نعلم عن صانعنا إلا الكمال المطلق والجلال والعلو والأسماء الحسنى. أما ذاته تعالى فمحجوبة عنا لا يعلمها إلا هو.

فإن قيـل: لا نؤمن إلا بما ندركه. فنقول مثلاً: هـل الهـواء موجـود؟ فـما لونه؟ ومـا جـرمـه؟ ومـا طعـمـه؟ فكيف نؤمن بشـيء لا لون له. ولا جـرم له. ولا طعـم له؟ فسيقال: لإننا نحس به.. ونحن أيضًا نحس بالله في فطرتنا وقلوبنا. وفيما أمامنا من إبداع فى السموات والأرض: ﴿ **فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ [الروم: ٥٠]. وهـذا مـا يـسـمـونه دليل الإبداع. أى أن الصنعـة تدل على الصـانع. لأن العـدم لا يمكن أن يولد الوجـود. لأن فـاقـد الشىء لا يعطيـه.. إذن من الذى أتى بالسماء وبالشمس والقمر وبالليل والنهار. فقد يقال الطبيعة. فما هى؟ وأين هى؟ وهل هى ذكر أم أنثى؟ فقد يقال هى عدم.. والعدم كـمـا سبق لا يأتى بالوجود. وإن قيل هى شىء قادر مهيمن. فنحن متفقون. ولكن الفرق أنهم يسمونه الطبيعة ونحن نعلم أنه الله رب العالمين.

وقد قيل للإمام أبى حنيفة: بما عرفت ربك؟ قال حين كنت قادمًا رأيت فى نهر العراق أمرًا عجيبًا. فقد رأيت ألواحًا خشبية تجمعت فجاة من غير مجمع ثم صنعت من نفسها سفينة من غير صانع. ثم وضع فيها الشراع من غير واضع. ثم وثقت

بالسلع والبضائع من غير شاحن. ثم سارت تمخر عباب البحر تتفادى كل ما يقابلها من غير ربان. فقال الملحدون: إنك مجنون.. كيف ذلك< قال بعينى رأيتها. قالوا: أصنعة من غير صانع؟ قال: إذا إدعيتم بجنونى لأنى ادعيت أن السفينة من غير صانع. فكيف لا أحكم بأنكم مجانين وقد ادعيتم أن هذه السماء بشموسها وكواكبها. وهذه الأرض بأقطارها وحيوانها ونباتها وجبالها وُجدت من غير خالق.

● **عبادة الأوثان:**

وكان سبب ذلك فيما رواه البخارى عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣] قال: هذا أسماء رجال صالحين من قوم نوح. فلما هلكوا أوحي الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها. أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا. حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم وجاء أخرون. دب إبليس إليهم فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر. فعبدوهم.

وقال بعضهم: لكل هيكل سماوى شخص من الأشخاص السفلية على صورته وجوهره. فعمل هؤلاء الصور. ونحتوا الأصنام وبنوا لها بيوتًا. واعتبروا الكواكب والنجوم هى المدبرات لهذا العالم. وهى تصدر عن أمر الملأ الأعلى. ونصبوا لها الأصنام على صورتها. وقربوا لكل واحد منها ما يشبهه من الحيوان.

وهكذا تطورت عبادة قوى الطبيعية عند العرب قبل الإسلام. فصارت عبادة الأصنام. فبعد أن اتخذوها صوراً ورموزاً للقوى الخفية التى تؤثر فى حياتهم عبدوها على صورتها المادية بعد أن مضى زمن طويل. تحولت فيه الصور والرموز إلى أصول تعبد من دون الله. وصار الاعتقاد أن الله قد اتخذ أولياءهم الآلهة ومنحهم فيضًا من قدراته على شفاء الناس والتوفيق فى الزواج والذرية. وإبعاد الشر وجلب السعادة. وهى ما لا يمكن أن يناله الإنسان إلا بإرضاء هذه الآلهة التى يعبدونها وتقديم القرابين لها حتى تقربهم إلى الله زلفى.

وكان صانعوها يحاولون إعطاءها أشكالاً أسطورية مؤثرة. ويحرصون على صنعها من الأشجار المقدسة. أو الأحجار المتوارثة. واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنمًا يعبدونه.. فإذا أراد أحد منهم سفر. تمسح به وإذا قدم من سفر تمسح به.

فيكون آخر عهده به. وأول عهده به. ولهذا قالوا لما بعث النبى ﷺ: ﴿ **أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** ﴾ [ص: ٥]. قال أبو رجاء العُطاردىّ: كنا نعبد الحجر فى الجاهلية. فإذا وجدنا حجراً هو أحسن منه نلقى ذلك ونأخذه. فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب. ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه. ثم طفنا به. وكذا نعهد إلى الحجر الأبيض فنعبده زمنا ثم نلقيه.

وكان عمرو بن الجموح سيد من سادات بنى سلمة وشريفًا من أشرافهم وكان قد اتخذ فى داره صنمًا من خشب يقال له مناة يعظمه ويظهره. فلما أسلم ابنه معاذ بن عمرو بن الجموح وصاحبه معاذ بن جبل. كانوا يدلجون بالليل على صنمه فيحملونه ويطرحونه فى بعض الحفر وفيها الأوساخ والقاذروات. فإذا أصبح عمرو يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبة ثم قال: والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخذيته. فإذا أمسى ونام غدوا ففعلوا بصنمه مثل ذلك. فيغدو فيلتمسه فيجده فى مثل ما كان فيه من الأذى. وبعد مرات جاء بسيفه فعلقه عليه. وقال: إن كان فيك خير فامتنع بهذا السيف معك. فلما أمسى ونام. غدوا عليه وأخذوا السيف من عنقه. ثم أخذوا كلبًا ميتًا فقرنوه به بحبل ثم ألقوه فى البئر. وغدا عمرو فلم يجده. فخرج يتبعه حتى وجده فى تلك البئر منكسًا مقرونًا بكلب ميت. فلما رآه وأبصر شأنه. وكلمه من أسلم من قومه. أسلم وحسن إسلامه. فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصر من أمره. وهو يشكر الله أن أنقذه مما كان فيه:

والله لو كنت إلهـــا لم تكن	**أنت وكلبٌ وسط بئـر فى قَـرَنْ**
أف لملقـاك إلهـا مُـسْـتَـدَنْ	**الآن فـتـشناك عن سـوء الغَـبَنْ**
الحـمـــدلله العلى ذى المنْ	**الـواهـب الـرزاق ديَّان الـدِّيـن**
هو الذى أنقـذنى من قـبل أن	**أكـون فى ظلمـة قـبـر مُـرتهن**

● **إبراهيم عليه السلام وعبادة الأصنام:**

ولد إبراهيم ونشأ فى عصر يعبد قومه الأصنام. بل كان أبوه وعمه صانعين لها.. وكانت هناك فئة أخرى تعبد الكواكب والنجوم والشمس والقمر. وفئة ثالثة تعبد الملوك والحكام. وقد أطفئت أنوار العقل فى مشارق الأرض ومغاربها. وجلس

الظلام على عروشه المتعددة واشتد ظمأ الأرض إلى الرحمة. واشتد جوعها إلى الحق. وفى هذا الجو ولد ونشأ إبراهيم. وقدر له أن يقف ضد أسرته وضد نظام مجتمعه وضد أوهام قومه وظنون الكهنة. وعبدة النجوم والكواكب. والحكام المتألهين. وكل أنواع الشرك القائم[1].

فمنذ الطفولة يسأل عن هذه الأصنام. فيقولون له إنها تماثيل الآلهة. ويدهش إبراهيم ويحس داخل عقله المضيء بالرفض. فقد كان يلعب وهو طفل بهذه التماثيل ويمتطى ظهورها. مثلما يمتطى الناس ظهور الحمير والبغال. وأمره أبوه يومًا ألا يلعب بهذه التماثيل. ويتعجب الطفل من هذه الآلهة الكثيرة المصنعة من الخشب أو الحجر. والتى يصنعها الإنسان العاقل بيده ثم يسجد لها بعد ذلك وهو أحق منها بذلك — ولعياذ بالله — لأنه صانعها. ثم إنه حى يأكل ويشرب ويتنفس. وينفع غيره ويضره. أما هى فميته. لا تأكل ولا تشرب ولا تتكلم ولا تدافع عن نفسها. ولا تستطيع أن تعتدل لو قلبها أحد على جانبها. وعذب التفكير إبراهيم طويلاً.

وكان فى وسط المحراب توضع تماثيل أكبر الآلهة. وكانت هذه الآلهة أصنافًا وأنواعًا وأشكالاً. وكان يشعر لها باحتقار عظيم. ولكن المدهش هو الناس الذين ما أن يدخلوا المعبد حتى يخفضوا رؤوسهم ويحنوا ظهورهم بل ويبكون. ويسألون. وهى لا تسمع ولا تفهم. والمنظر يبدو مضحكا. ولكنه بدأ يحس بالغضب. بل ويصرح باحتقاره وكراهيته وثورته على ما يحدث فقال لهم: ﴿ **مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٥٢] ويسألهم ﴿ **هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ** ﴾ [الشعراء: ٧٣] ويسأل أباه ﴿ **قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا** ﴾ [مريم: ٤٢].

وقد دخل إبراهيم عليه السلام على أمه مهمومًا محزونًا وسألها فى اهتمام بالغ: يا أمى من ربى؟ قالت: أنا ربك. ألست مربيتك ومطعمتك وساقيتك وراعيتك. فسألها: ومن ربك أنت؟ قالت: أبوك. فهو الذى يرعانا ويطعمنا ويسقينا. فسألها: ومن رب أبى؟ فهو يريد أن يصل إلى الرب الأعلى وإلى الرب غير المربوب الذى يُطعِم

(١) أنبياء الله — أحمد بهجت.

ولا يُطعَم ويجير ولا يجار عليه. فقالت: النمرود: أى الحاكم - الذى يوفر لنا أسباب الحياة. فسألها ومن رب النمرود؟ فقالت له: كف عن هذا يا إبراهيم!.

ولكن هذه الإجابة لم تقنع نهمه نحو المعرفة واليقين. فخرج إلى الكون بسمائه وأرضه ونجومه وكواكبه وبحاره وأنهاره ليسأله ويستوضحه ويتعرف منه. ويُعرف قومه من خلاله. من هو الخلاق العليم الذى يستحق العبادة ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٧٩] وهذا المقام مقام مناظرة لقومه. وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة لا تصلح للألوهية ولا أن تعبد مع الله عز وجل. لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مسخرة. تطلع تارة وتأفل أخرى.. فتغيب عن العالم والرب تعالى لا يغيب ولا تخفى عليه خافية. بل هو الدائم الباقى بلا زوال.

فبين لهم أن الكواكب لا تصلح لذلك ثم ترقى منها إلى القمر الذى هو أضوأ منها وأبهى. ثم ترقى إلى الشمس التى هى أشد الأجرام المشاهدة ضياءً وسناءً وبهاءً. فبين أنها مسخرة مسيرة كما قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** ﴾ [فصلت: ٣٧] ثم وضح لهم أنه لا يبالى من هذه الآلهة الزائفة التى يعبدونها من دون الله. فإنها لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تعقل. بل هى إما مخلوقة مسخرة أو مصنوعة منحوتة أو محفورة منجورة.

ثم أراد إبراهيم عليه السلام أن يرتقى فى معرفته بربه وأن يرى رأى العين قدرة ربه تعالى على أحياء الموتى فقال: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ**

اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾. [البقرة: ٢٦٠]

أى أمره الله أن يأخذ أربعة من الطير. قيل طاووس وحمامة وغراب ويمامه وأن ينظر إليهن جيداً أو أن يتبين ملامحهن ثم يذبحهن ويقطعهن ثم يخلط اللحم باللحم والعظم بالعظم والدم بالدم والريش بالريش. ثم يفرق أجزاءها على الجبال. ثم ينادى على كل طائر بأسمه. فإنها ستطير إليه بحيث يجتمع اللحم إلى اللحم والعظم إلى العظم والدم إلى الدم والريش إلى الريش حتى يكتمل كل طائر أمامه ثم ياتينه سعياً. وحينيئذ يكون قد رأى الميت يعود حيًا. بقدرة رب العالمين. ففعل. ونادى الطيور فعادت إليه صحيحة كأنها لم تذق للموت طعما.

● إبراهيم عليه السلام يحطم الأصنام:

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٨٣ – ٩٨]. وفي سورة الأنبياء أنه حطم تلك الأصنام وقال لهم: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٦ – ٧٠].

أى أنه أنكر على قومه عبادة الأصنام وحقرها وصغرها وتنقصها. وكانت حجتهم فى عبادتها صنع الآباء والأجداد. فاعلن عداوتها وتبرأ منها. فلو كانت تضر لضرته. أو تؤثر لأثرت فيه. فقد كان لهم عيداً يذهبون إليه فى كل عام مرة. فدعاه أبوه ليحضره. فقال: إنى سقيم. أى عرَّض لهم فى الكلام حتى توصل إلى مقصوده.

فلما خرجوا إلى عيدهم. ذهب إلى الأصنام فوجدها فى بهو عظيم وبين يديها ألوانًا من الأطعمة. فقال لهم متهكمًا مزدريا « ألا تأكلون » ثم أخذ فى هدمها حتى جعلها حطامًا. إلا كبيرًا لهم. ثم وضع القدوم فى يد ذلك الكبير. إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار.

فلما رجعوا من عيدهم ورأوا ما حل بآلهتهم تساءلوا عمن فعل هذا بها؟ فأجاب بعضهم. إنه إبراهيم الذى يذكرها بالسوء والتنقص والوعيد. فقضوا وحكموا بإحراقه على أعين الناس.. وشرعوا يجمعون حطبًا من جميع ما أمكنهم من الأمكنة.. ثم عمدوا إلى منطقة واسعة ووضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيها النار. فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم ير مثله.

ثم وضعوا إبراهيم فى منجنيق وأخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول: لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك. ثم قذفوه فى النار وهو يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل. وهنا عرض له جبريل عليه السلام فى الهواء. وقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال أما إليك فلا. فقال إذن فاسأل الله. قال علمه بحالى يغنيه عن سؤالى. وجعل ملك المطر يقول: متى أومر فأنزل المطر؟ فكان أمر الله أسرع. فقال تعالى: ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ فإذا بها بردًا وسلامًا عليه فلم تحرق منه إلا قيوده. حتى خرج منها سليمًا معافًا برحمة الله رب العالمين.

وتوكل على الرحمن فى الأمر كله ... فما خاب حقًا من عليه توكل
وكن واثقًا بالله واصبر لحكمه ... تفز بالذى ترجوه منه تفضلا

* * *

الفصل الثالث

موسى وعبادة الأشخاص

- عبادة الأشخاص.
- طغيان فرعون.
- موسى فى الصندوق.
- موسى عند فرعون.
- موسى والمتشاحنين.
- موسى يسقى للمرأتين.
- عمل المرأة والتبرج.
- موسى والوحى.
- موسى وفرعون.
- موسى والسحرة.
- إيمان السحرة.
- خروج موسى ببنى إسرائيل.

● **عبادة الأشخاص:**

وهى من الأمور الشركية التى أوقع فيها الشيطان بنى آدم بعد عبادة الأصنام. وهى عبادة الأبطال والملوك والحاكم.

والبطولة فى اللغة: هى الغلبة على الأقران. وهى غلبة يرتفع بها البطل عمن حوله من الناس العاديين إرتفاعاً يملأ نفوسهم له إجلالاً واكبارا. وقديماً كان البطل فى القبيلة وفى عهود الحياة الأولى للأمم. يعد شخصاً مقدساً. بل كانوا يظنونه أحياناً من سلالة الآلهة. وكأنه هبة تهبها لهم. حتى لا يقعوا فريسة لمن سواهم. وحتى لا يسقطوا فى مهاوى لا قرار لها من الإضمحلال والفناء. وعلى نحو ما كانوا يقفون أمام خوارق الطبيعة مشدوهين حائرين شاعرين كأنما تحوطها هالة سحرية. كانوا يقفون أمام البطل مذهولين. كأنما يستتر فى طواياه قوى خفية. وهى قوى مكنت له فى رأيهم من الإتيان بالخوارق فى البسالة وقتال الأعداء. ويشعرون بقوته أنه هو الذى يهبهم الحياة. ومن أجل ذلك عبدوه أحياناً.

وخاصة فى فى عهود الإنسانية الأولى. التى انطمست فيها الأديان. ولم يتبقى منها سوى بعض القشور. حتى ليطلق على بعضها: فترة عبادة الأبطال.

حين كانوا يتراءون لمن حولهم رموزاً لقوى خفية غيبية مجهولة. أو بعبارة أخرى: رموزاً لأشياء إلهية مقدسة. بل كأنما الآلهة هى التى أنجبتهم لحماية من حولهم بما يأتون من معجزات القوة والشجاعة وحسن القيادة والإدارة.

مما دفع الناس إلى عبادتهم كأنهم حقاً آلهة بيدهم حياتهم. وكل ما يحفظها عليهم من أسباب الرزق والبقاء. ويتضح هذا العصر فى تاريخ اليونان القديم. حين مضت تباشير هذا التاريخ تتبلج فى أفق حياتهم المظلم الكثيف. وفى هذا الزمن السحيق – القرن الخامس عشر ق. م – كان يحكمهم ملوك آمنوا أنهم من سلالة الآلهة وقد نسجوا حولهم الأساطير الكثيرة المغرقة فى الخيال. غير فارقين بينهم وبين آلهتهم فى صور الحياة والأحداث. وما ينزلون على الناس من صواعق الموت الذى لا يُبقى ولا يذر. بل كانوا يخلطون آلهتهم بهم إختلاطاً يجعل لهم نفس النوازع البشرية وكأنما طبيعتهم هى نفس طبيعتهم الإنسانية بكل عواطفها فى الحب وغير الحب. وبكل أهوائها وضروب سلوكها. وكل أحقادها وصنوف خصوماتها.

وبذلك وضعوا الآلهة والأبطال فى مرتبة واحدة. سواء فى السلم أو فى الحرب والقتال[١].

وهو نفس الفكر البشرى عن ألوهية الفراعنة فى مصر وحكام بعض الدول الأخرى بل والأكثر من ذلك فى ألوهية المسيح عليه السلام وتعرضه للقتل.. إذ كانوا يقتتلون معهم وتارة يمدونهم بالنصر وتارة يتخلون عنهم. فيذوقون الموت أو يذوقون الذل والهوان على يد الأعداء.

وأخذت تتكون فى هذه الفترة المتعمقة فى القدم أساطير كثيرة فى مخيلة اليونان عن أبطالهم وآلهتهم. ولم يلبثوا أن رتلوا أناشيد شعرية.

وأخذت هذه الأناشيد والأساطير تتضخم حتى قام هوميروس فى القرن العاشر ق. م. بصياغة قصيدتيه القصصيتين الطويلتين الإلياذة والأوديسا والتى تصور الأبطال فى صورة إلهية. والآلهة فى صورة بشرية من خلال حرب اليونان مع أهل طروادة»[٢].

وهكذا عند المصريين يوجد هذا النوع من الأساطير مثل أسطورة إيزيس وأوزوريس والتى تصور الآلهة فى صورة بشرية.

وكان الملوك يحيطون أنفسهم بهالة من التقديس. ويضعون مكانتهم فى إطار من الإلهية. تمويهاً على العامة حتى يضمنوا الطاعة المطلقة. وحتى يأمنوا غائلة الثورات. من الذين يطمعون فى تبوء عرش الملك. مقدرين أن ذلك التقديس يحول بين النازعين إلى الثورة وبين ما يشتهون.

وفى مصر لم يكن الفرعون يريد من قومه غير الطاعة. فأهم شىء أن يكون مفهوماً أن الفرعون يهيمن على جميع أنواع الآلهة ويرمز لها ويتكلم بإسمها. وكان هذا سائداً فى جميع ربوع مصر.. وعلى حين تعددت الآلهة ظل الشعب المصرى مؤمن بإله مركزى هو إله الفرعون. بل هو الفرعون. وكانت الطبقة الحاكمة تقتصر على عبادة فرعون وإنفاذ أوامره. وتصديق استبداده. ومطاوعة أعظم نزواته جنوناً. ولسوف نحس ونحن نتصفح أوراق موسى عليه السلام. كيف كان الشعب المصرى

---

(١) البطولة فى الشعر العربى – شوقى ضيف.
(٢) البطولة فى الشعر العربى – شوقى ضيف.

يعيش فى عصره. وكيف كانت الجماهير مستذلة مستعبدة تطيع الفرعون. وتمضى خانعة تحت ظل وزرائه وقادة جنده وتسمع إلى ادعائه الألوهية دون أن تحرك ساكنا بل وهى مصدقة. ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤].

● **طغيان فرعون:**

إن فرعون طغى وبغى وتجبر وتكبر وآثر الحياة الدنيا وأعرض عن طاعة الرب الأعلى. وجعل الناس شيعًا. أى قسم رعيته أقسامًا وفرقًا وأنواعًا. يستضعف طائفة منهم هم شعب بنى إسرائيل. الذين هم من سلالة يعقوب بن إسحق بن إبرهيم عليه السلام. وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض. وقد تسلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم. فكان يستعبدهم ويستخدمهم فى أخس الصنائع والحرف وأرداها ومع هذا يُذبح أبناءهم.

وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح. أن بنى إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يؤثرونه عن إبراهيم عليه السلام. من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه. وكانت هذه البشارة مشهورة فى بنى إسرائيل. فلما وصلت إلى فرعون من بعض أمرائه. أمر عند ذلك بقتل أبناء بنى إسرائيل حذراً من وجود هذا الغلام ولن يغنى حذر من قدر.

وذكر ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم: أن فرعون رأى فى منامه كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس. فأحرقت دور مصر وجميع القبط. ولم تضر بنى إسرائيل. فلما استيقظ هاله ذلك. فجمع الكهنة والحذقة والسحرة وسألهم عن ذلك.. فقالوا له: هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاكه على يديه. فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان واحترز كل الاحتراز أن لا يوجد هذا الغلام. حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى ويعلمون ميقات وضعهن. فلا تلد امرأة ذكر إلا ذبحوه من ساعته. وعند أهل الكتاب: أنه كان يقتل الغلمان لتضعف شوكة بنى إسرائيل فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم.

أى لأن لهم عقيدة غير عقيدته هو وقومه. فهم يدينون بدين جدهم إبراهيم وأبيهم يعقوب عليهما السلام ومهما يكن قد وقع فى عقيدتهم من فساد وإنحراف فقد بقى لها أصل الاعتقاد بالله رب العالمين وإنكار ألوهية فرعون الوثنية.

وهناك أحس الطاغية أن هناك خطراً على عرشه وملكه من وجود هذه الطائفة فى مصر. ولم يكن يستطيع أن يطردهم منها وهم جماعة كبيرة. أصبحت تعد مئات الألوف. فقد يصبحون إلبًا عليه مع جيرانه الذين كانوا كثيراً ما يقاتلونه فابتكر عند ذلك طريقة جهنمية خبيثة للقضاء على الخطر الذى يتوقعه من هذه الطائفة التى لا تعبده ولا تعتقد بألوهيته. تلك هى تسخيرهم فى الشاق الخطر من الأعمال وتشتيتهم وتعذيبهم بشتى أنواع العذاب. وبعد ذلك كله تذبيح الذكور من أطفالهم عند ولادتهم واستبقاء الإناث كى لا يتكاثر عدد الرجال فيهم. وبذلك يُضعف قوتهم بنقص عدد الذكور وزيادة عدد الإناث فوق ما يصبه عليهم من عذاب. ومهانة وإذلال باستباحة النساء والحلائل.

وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أن القبط شكو إلى فرعون قلة بنى إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور وخشى أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنوا إسرائيل يعالجون ويعملون. فأمر الفرعون بقتل الغلمان عامًا. وأن يتركوا عامًا.. فذكروا أن هارون عليه السلام ولد فى عام المسامحة عن قتل الأبناء وأن موسى عليه السلام ولد فى عام قتلهم. فضاقت أمه به ذرعًا واحترزت من أول ما حملت به. ولم يكن يظهر عليها مخايل الحمل. فلما وضعت الهمت أن اتخذت له تابوتًا فربطته فى حبل. وكانت دارها متاخمة للنيل. فكانت ترضعه فإذا خشيت من أحد وضعته فى ذلك التابوت فأرسلته فى البحر. وأمسكت طرف الحبل عندها. فإذا ذهبوا استرجعته إليها به. فأرسلته ذات يوم. وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها فذهب مع النيل إلى دار فرعون.

● موسى عليه السلام فى الصندوق:

وهكذا ولد موسى عليه السلام فى ظل تلك الأوضاع القاسية. ولد والخطر محدق به والموت يتلفت عليه. والشفرة مشرعة على عنقه تهم أن تحتز رأسه.

وها هى ذى أمة حائرة به خائفة عليه تخشى أن يصل نبوءة إلى الجلادين وترجف أن تتناول عنقه السكين. ها هى بطفلها الصغير فى قلب المخافة عاجزة عن حمايته . عاجزة عن اخفائه. عاجزة عن حجز صوته الفطرى أن ينم عليه. عاجزة عن تلقينه حيلة أو سيلة. ها هى ضعيفة عاجزة مسكينة. هنا تتدخل يد القدرة. فتتصل

بالأم الوجلة المذعورة. وتلقى فى روعها كيف تعمل وتوحى إليها بالتصرف ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧].

يا للقدرة.. يا أم موسى أرضعيه فإذا خفت عليه وهو بين يديك. وهو فى حضنك. وفى رعايتك! إذا خفت عليه وفى فمه ثديك وهو تحت عينيك. فالقيه فى اليم! وأيضًا ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ لأنه هنا فى اليم فى رعاية اليد التى لا خوف معها. اليد التى لا أمن إلا فى جوارها والتى لا تقرب المخاوف من حماها واليد التى تجعل النار بردًا وسلامًا وتجعل البحر الهائج المائج ملجأ ومنامًا. اليد التى لا يجرؤ فرعون الطاغية الجبار ولا جبابرة الأرض جميعًا أن يدنوا من حماها الآمن عزيز الجناب «إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين» فلا خوف على حياته ولا حزن على بعده. ولا على مستقبله. ووارد الله لا يعارض. ولهذا ينزل هذا الإيحاء على قلبها الواجف المحرور بردًا وسلامًا. فأطاعته[1].

ويقول الشيخ الشعراوى رحمه الله: وآخر شيء يمكن أن يقوم به أب أو أم حين يريد أن ينجى طفله هو أن يلقيه فى البحر. فالطفل عاجز ضعيف وإلقاؤه فى الماء يعرضه لكل ألوان الهلاك فقد يتعرض لطير جارح يهاجمه ويقتله وهو لا يملك لنفسه دفاعًا ولا بأسًا. وقد تأتى موجه من الماء فتطيح بالسلة فينقلب فى الماء فيغرق فى الحال. فهو لا يعرف شيئًا عن العوم. ولا يستطيع أن يتشبث بشيء إذا سقط فى الماء. وقد تسقط الأمطار فتملأ السلة التى هو فيها فيغرق.

إذن فكل الأخطار محدقة به وموجودة فى إلقائه فى البحر ما عدا فرصة الحياة.. والمنطق والأسباب والعقل كلها تقول: إذا أرادت أم موسى أن تنجيه فلتفعل أى شيء إلا أن تلقيه فى الماء. كان يمكنها أن تخفيه فى مكان بعيد أو تهاجر به إلى خارج مصر.. ولكن الله أمرها أن تلقيه فى اليم حيث يواجه خطر الموت أكثر من مظان الحياة. فكيف تنقذه من موت مظنون لتلقيه فى موت محقق، إنها قدرة الله التى جعلت من هذه الأخطار كلها الطريق الوحيد المضمون لنجاة موسى عليه السلام. لأنه تعالى هو القائل الفاعل ولهذا تتعطل الأسباب.

---

(١) الظلال. (٢) معجزة القرآن – الشعراوى جـ١.

● موسى عليه السلام عند فرعون :

والعجيب أيضًا أن يقول الله جل وعلا لها « يأخذه عدو لى وعدو له » فالمفروض عقلاً أن يقول لها مطمئنًا إننا سنبعده عن فرعون كل البعد فإذا كان فى الجنوب أمرنا البحر أن يلقيه فى الشمال وإذا كان فى الشمال أمرنا البحر أن يلقيه فى الجنوب. أما أن يذهب به إليه. فهذا هو عين التحدى. وكأنه تعالى يقول لفرعون: أنت أردت أن تهدم إرادتنا فى موسى فأردنا منك أن تربى أنت إرادتنا. لأن قدرتك وإرادتك لا تساوى شيئًا أمام قدرة الله وإرادته.

والمشهد الثانى ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ ﴾ [القصص: ٨] سبحان الله.. أهذا هو الوعد؟ أهذا هو الأمن؟ أهذه هى البشارة؟. وهل كانت المسكينة تخشى عليه إلا من آل فرعون؟ وهل كانت ترجف إلا أن ينكشف أمره لآل فرعون؟ وهل كانت تخاف إلا أن يقع فى أيدى آل فرعون؟. نعم! ولكنها القدرة تتحدى بطريقة سافرة مكشوفة تتحدى فرعون وهامان وجنودهما. فهاهى تلقيه فى أيديهم بلا بحث ولا كد. وهو من يطلبون. وهو مع كل ذلك مجردًا من كل قوة. ومن كل حيلة. عاجزًا عن أن يدفع عن نفسه أو حتى يستنجد! ها هى تقتحم على فرعون حصنه وهو الطاغية السفاح ولا تتعبه بالبحث عنه فى بيوت بنى إسرائيل وفى أحضان نسائهم الوالدات! ثم ها هى ذى توضح مقصدها وتحديها ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص: ٨] ولكن كيف ذلك ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: ٩] لقد اقتحمت به يدُ القدرة على فرعون قلب امرأته بعد أن اقتحمت به عليه حصنه.. لقد حمته بالمحبة. ذلك الستار الرقيق الشفيف. لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال.

حمته بالحب الحانى فى قلب امرأة. وتحدت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره. وهان فرعون على الله أن يحمى منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف الحانى(١).

أى أن الجوارى التقطنه فى تابوت مغلق حتى وضعنه بين يدى آسية بنت مزاحم

(١) الظلال.

امرأة فرعون. فلما فتحت الغطاء وكشفت الحجاب. ورأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية. والجلالة الموسوية. أحبته حبًا شديداً جداً. فلما جاء فرعون وأمر بذبحه استوهبته منه ودافعت عنه. وقالت «قرة عين لى ولك» فقال فرعون: أمالك فنعم وأما لى فلا. ثم أجرت له اختبار الجمرة والتمرة. فوافق على تبنيه وهم لا يدرون ماذا يريد الله بهم ولسان القدر يقول لفرعون: يا أيها الملك المغرور بكثرة جنوده وشدة بأسه واتساع سلطانه قد حكم العظيم الذى لا يغالب ولا تخالف أقداره. أن هذا المولود الذى قتلت من أجله آلاف الأطفال الأبرياء. لا يكون مرباه إلا فى دارك ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك. وأنت أنت الذى تتبناه ولا تطلع على سر معناه حتى يكون هلاكك وهلاك ملكك على يديه. لتعلم وليعلم الجميع. أن قدرة الله لا تغالب.. وليغلبن مغالب الغلاب(١).

وتربى موسى عليه السلام فى قصر فرعون وتعلم كل العلوم المتاحة فى عصره. شأنه شأن الأمراء حتى بلغ أشده.

● **موسى والمتشاحنين:**

حتى حدث أمر فارق فى حياته عليه السلام. إذ دخل المدينة على حين غفلة من أهلها. فوجد فيها رجلين يتخاصمان ويتصارعان. أحدهما مصرى والثانى إسرائيلى. فاستغاث به الإسرائيلى على المصرى. فما كان منه إلا أن أخذته حميته وشهامته للضعيف والمظلوم على القوى الظالم.. ووكز المصرى فقضى نحبه. فقال هذا من عمل الشيطان وندم واستغفر وعزم على عدم العود لمثلها. وخرج من مصر خائفًا يترقب وهو يقول: رب نجنى من القوم الظالمين. حتى وصل إلى ماء مدين. ووجد عليه جماعة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان أى تكفكفان غنمهما حتى لا تختلط بغنم الناس. فسألهما عن سر ذلك. فقالتا: لا نقدر على ورود الماء إلا بعد ابتعاد الرعاء. لضعفنا وسبب مباشرتنا هذا العمل ضعف أبينا وشيخوخته.

فسقى لهما ثم عاد إلى الظل ﴿ **فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ [القصص: ٢٤] حيث سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر. وكان حافيًا سقطت نعلا قدميه من الحفاء. فجاءته إحداهما تمشى على استحياء وأدب أى

---

(١) قصص الأنبياء – ابن كثير.

مشى الحرائر. وقالت: إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا.. فصرحت له بذلك لئلا يوهم كلامها ريبة. وهذا من تمام حيائها وصيانتها.

فلما جاءه وأخبره ما كان من أمره فى خروجه من مصر. فراراً من فرعونها.. قال: لا تخف فقد خرجت من سلطانهم فلم تعد فى دولتهم. ونجوت من ظلمهم.

ولعل الله تعالى أراد بهذا الموقف أن يُعد موسى عليه السلام لتحمل أعباء الرسالة والمواجهة مع فرعون. وذلك لأنه تربى كأمير من الأمراء فى قصر الفرعون. يأمر فيطاع. ويشير مجرد إشارة فيحدث ما يريد. وهى حياة دعه وراحة ورفاهية. وهى لا تنبت الرجال الأقوياء. ولهذا أراد الله جل وعلا أن يعوده على تحمل المشاق وينشأه خلقا آخر. فيخرج من مصر خائفًا يترقب مطلوبًا فى ثأر من فرعون وملئه حتى يتحمل المشاق ويتعود على اليقظة. ثم تحفى قدماه ولا يأكل إلا البقل وورق الشجر. ثم يعمل كخادم وأجير لمدة طويلة. وكل ذلك ليقوى عوده وتشتد صلابته. فيصبح أقوى الناس صلابة لأنه سيواجه أشد الناس عناداً ويصبح أعمق الناس إيمانًا لأنه سيواجه أشد الناس كفراً وحجوداً ونكرانًا.

فقد حكى أحد العلماء المحدثين عن نفسه فقال: كنت مغرمًا فى طفولتى بجمع شرانق الفراش. ومراقبة خروج الفراشة منه فى الربيع. وكان جهادها فى التخلص من شرنقتها وسجنها يثير عطفى دائما وأدرك والدى ذلك فأتى يومًا بالمقص وأعمله فى غلاف الحرير المطبق على الفراشة وساعدها على الخلاص بسهولة. ولكنها ما لبثت أن ماتت. وعندئذ قال لى أبى: يا بنى إن الجهد والمشقة الذى تبذله الفراشة لتخرج من الشرنقة يعطيها قوة فكرية وبدنية ونفسية تؤهلها لمواجهة مصاعب الحياة. وإذا لم تبذل ذلك الجهد خرجت ضعيفة هذيلة لا تلبث أن تموت. وكذلك الناس إذا جهدوا فى سبيل ما يريدون زادوا قوة وعزمًا. ولكن إذا ما واتاهم ما يريدون سهلاً طيعًا غلب عليهم الضعف ومات منهم شىء جليل الخطر.

وهكذا نعلم أن طبيعة الحياة عجيبة لأنها لا تعطينا إلا لتأخذ منا ولا تهب لنا شيئًا إلا لتنال مقابلاً فهى تكيل لنا صاعًا بصاع. فلا غرو إذا كانت آمالنا لا تحقق إلا بين الأشواك فى الأرض الوعرة. وكأنما الدنيا تخفى مفاتنها تحت مصارع المطامع لتدفع الإنسان إلى مواجهتها والتغلب عليها.

ومن ثم نعرف قيمة الشدائد . بل نعرف الفرق بين الأبطال الصناديد والجبناء الرعاديد . إذ الشدائد هى المحك الذى يشكف معادن الرجال .

وليلة من ليالى الدهر كالحة ... باشرت من هو لها مرأى ومصطرعا
ونكبة لو رمى الرامى بها حجرا ... أصم من جندل الصوان لا نصدعا
مرت علىّ فلم أطرح لها سلبى ... ولا اشتكيت لها وهنا ولا جزعا
لا يملأ الأمر صدرى قبل موقعه ... ولا يضيق به صدرى إذا وقعا
كلا. لبست فلا النعماء تبطرنى ... ولا تخشعت من لأوائها جزعا(1)

● موسى عليه السلام يسقى للمرأتين :

فقد اطلع موسى عليه السلام عند البئر على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة السليمة الفطرة كنفس موسى عليه السلام . . حيث وجد الرعاه الرجال يوردون أغنامهم لتشرب من البئر. ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء . والأولى عند ذوى المروءة والفطرة السليمة أن تسقى المرأتان وتُصدرا بأغنامهما أولاً : وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما . ولم يقعد موسى الهارب المطارد المسافر المكدود ليستريح . وهو يشهد هذا المنظر المنكر المخالف للمعروف . بل تقدم للمرأتين يسألهما عن أمرهما . فأطلعتاه على سبب إنزوائهما وتأخرهما وذودهما لغنمهما عن ورود الماء . . إنه الضعف والبعد عن الاختلاط بالرجال . وأبوهما شيخ كبير لا يقدر على مجالدة الرجال . وثارت نخوة موسى عليه السلام وفطرته السليمة . فتقدم لأقرار الأمر فى نصابه وسقى للمرأتين كما ينبغى أن يفعل الرجال ذووا الشهامة . مما يشهد على نبل هذه النفس التى صُنعت على عين الله . كما يشى بقوته التى ترهب حتى وهو فى إعياء السفر الطويل . ولعلها قوة نفسه التى أوقعت فى قلوب الرعاة رهبته أكثر من قوة جسمه . فإنما يتأثر الناس أكثر بقوة الأرواح والقلوب .

وبعد رجوعه إلى الظل مستنجداً بالله ملقيًا بحمله فى ذلك الركن الركين . والظل الظليل والحمى الآمن . وما يكاد يستغرق فى تلك المناجاة حتى تأتيه إحدى

---

(1) الجانب العاطفى من الإسلام – الشيخ محمد الغزالى .

الفتاتين فى مشية الطاهرات العفيفات فى غير تبذل ولا تبرج ولا إغواء . . جاءته لتنهى إليه دعوة فى أقصر لفظ وأدله . فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح . فالفتاة القويمة تستحى بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم . . ولكنها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب الإضطراب الذى يُهيج ويُغرى ويُطمع . إنما تتحدث بوضوح بالقدر المطلوب ولا تزيد .

وعلى كل حال استجاب موسى عليه السلام للدعوة . فهو فى حاجة إلى الأمن بنفس قدر حاجته إلى الطعام والشراب بل أشد « فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » ليلقى فى قلبه الطمأنينة ويشعره بالأمان . ثم دعاه للزواج من إحدى ابنتيه . وجعل مهرها العمل لديه ثمانية أو عشرة أعوام . فوافق . . وذلك بناء على قول أحداهما « يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين »[١] فهى وأختها تعانيان من رعى الغنم ومزاحمة الرجال على الماء . ومن الإحتكاك الذى لابد منه للمرأة التى تزاول أعمال الرجال وهى تتأذى من هذا كله وتريد أن تكون سيدة تأوى إلى بيت . امرأة عفيفة مستورة لا تحتك بالرجال الغرباء فى المرعى والمسقى وما شابه . . المرأة العفيفة الروح الطاهرة القلب لا تستريح لمزاحمة الرجال . ولا للتبذل الناشىء من هذه المزاحمات وتلك المضايقات[٢] .

● عمل المرأة والتبرج :

يقول الشيخ الشعراوى رحمه الله لنعلم أن الذين يطلبون مساواة المرأة بالرجل يطلبون لها الغبن والظلم . ولو أنصفت المرأة لرأت فى هؤلاء خصومها وأعداءها الألداء فالذى يريدها أن تخرج لتكدح مثل الرجل . نسأله ؟ هل سويت أنت نفسك بها ؟ ومادمت تريد منها أن تعمل عملك . فلماذا لا تعمل أنت عملها ؟ فمثلا أنت تحمل أو ترضع بدلا عنها[٣] .

وهل عمل المرأة يُقصر على المكاتب المكيفة والوظائف المرموقة والإعلام والقضاء والفن والصحافة وضباط الجيش والشرطة . ثم تترك أعمال المناجم والمحاجر وتعمير الصحراء وإستصلاح الأراضى ومصانع الحديد والصلب وقيادة اللوارى والتجنيد فى القوات المسلحة للرجال .

---

(١) القصص ٢٦ وانظر الظلال . (٢) الظلال .
(٣) المرأة فى القرآن الكريم – الشعراوى .

فأى مساواة هذه.. ثم إن فى ذلك اعترافٌ ضمنى برقة وضعف المرأة واختلاف طبيعة خلقها عن الرجل. «وعلى المرأة أن تشكر ربها لأنها تتعامل مع أشرف شىء فى الوجود وهو الإنسان ولكى تؤدى مهمتها معه كأم ومربية فخير لها أن تتعلم وتُعلم أولادها. والمرأة التى لا تريد الإقتناع بهذه المسألة وبهذه المهمة تكون فاشلة. لأن رعاية الأسرة تحتاج كل وقتها. ولو نظرت إلى نشاطها فى الحياة لو فرت على البيت أضعاف ما تأخذه من راتب. ووفرت تكاليف زينتها ومتطلبات خروجها. فإذا وجدت ضرورة لخروجها للعمل فلا مانع أبداً من أن تعمل مع زوجها أو أبنائها أو أحد محارمها. أما العمل الذى يخرجها لتلتحم بالرجال. فالإسلام فى ذلك واقعى. ويقول: لابد وأن نقدر الضرورة بقدرها. فتفهم أنها أنثى فتمشى فى المجتمع بحساب وتزاول عملها بشرط آلا تحتك بالرجل قدر المستطاع»[1].

ولكن المرأة تحب أن تبدو جميلة. وأن تحوز إعجاب كل من يراها وهى ترى فى ذلك أنوثتها. فهى لا تخرج من بيتها إلا عروساً. قد أخذت زخرفها وازينت. ولسان حالها يقول: ألا تنظرون إلى هذا الجمال؟

وهل من راغب فى القرب الوصال؟. فهى للأسف الشديد تعرض جمالها وشرفها فى سوق الشوارع رخيصاً تتداوله الأعين الوقحة.. وزينة المرأة وظهور جمالها الطبيعى والمصطنع بين الرجال غواية واغراء. وشرارة تُضرم ما كمن وخمد فى نفوسهم من شهوة حيوانية. والمرأة المتبرجة هى الشرارة للزنا. ولو احتشمت واجتنبت التبرج والخلاعة فى مشيتها وملبسها وكلامها لما انتشر هذا الفساد والشر المستطير فى أنحاء المجتمع.

قل للجميلة أرسلت أظافرها	إنى لخوف كدت أمضى هاربا
إن المخالب للوحوش نخالها	فمتى رأينا للظباء مخالبا
بالأمس قصصت شعرك غيلة	ونقلت عن وضع الطبيعة حاجبا
وغداً نراك نقلت ثغرك للقفا	وأزحت أنفك رغم أنفك جانبا
من علم الحسناء أن جمالها	فى أن تخالف طبعها وتجانبا

(١) المرأة فى القرآن الكريم – الشعراوى.

إن الجمال من الطبيعة رسمه ... إن شذ خط منه لم يك صائبا[1]

وقال الآخر:

لا تعجبنك أوجه مدهونة ... وتظن أن الحسن بالتلوين

فالقرد ذو قبح وإن حسنته ... والبدر لا يحتاج للتلوين

وفى الإحتشام حماية للجميع. فهو حماية للأبناء من الإنحراف ومن ظاهرة الزواج العرفى بين الطلبة والطلبات ومن الوقوع فى الخطيئة. وهو حماية للمرأة أيضًا لأن عمر الجمال قصير ومحدود. وسرعان ما يسرع إليه الذبول والأفول. وعنده تأمن على زوجها من غيرها من الفتيات. فالتى تسمح لزوجها ولنفسها بالفتنة عليها أن تسمح لغيرها بذلك فلا تغار.

● **موسى عليه السلام والوحى:**

فلما قضى موسى الأجل المتفق عليه أخذ أهله وقفل راجعًا إلى مصر. وهو فى الطريق. رأى نارًا فظنها من فعل أهل البادية. الذين يوقدون النار عادة على مرتفع من الأرض ليراها السارى فى الصحراء. فتكشف له الطريق أو يجد عندها الضيافة والكرم. ومن يهديه إلى الطريق. ولهذا كان حاتم الطائى يقول لخادمه.

علّ يرى نارك من يمر ... فإن جلبت ضيفا فأنت حر

ولهذا لما رأى موسى النار. استبشر وذهب ليأتى منها بقبس أو جذوة يستدفىء بها أهله. فالليلة باردة. وليالى الصحراء باردة قارة. أو ليجد عندها من يهديه إلى الطريق أو يهتدى على ضوئها إلى الطريق.. لقد ذهب يطلب قبسًا من نار ويطلب هاديًا فى السرى. ولكنه وجد المفاجأة الكبرى. إنها النار التى تدفىء لا الأجسام ولكن الأرواح. النار التى تهدى لا فى السرى ولكن فى الرحلة الكبرى إلى الله..

فإنه لما أنتهى إليها وجدها تتأجج فى شجرة خضراء وكل ما لتلك النار فى اضطرام. وكل ما لتلك الشجرة فى ازدياد. فوقف متعجبًا. فناداه ربه بالواد المقدس طوى. وأمره أولاً بخلع نعليه تعظيمًا وتكريمًا وتوقيرًا لتلك البقعة المباركة. ولاسيما فى تلك الليلة المباركة.. وعند أهل الكتاب أنه وضع يده على عينه من شدة ذلك

---

(١) نعمت صدقى – التبرج.

النور مهابة له وخوفًا على بصره. ثم خاطبه الجليل بقوله ﴿ **إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [القصص: ٣٠] وقوله: ﴿ **إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** ﴾ [طه: ١٤] ثم أخبره بأن هذه الدنيا ليست بدار قرار وإنما الدار الباقية هي الآخرة التي لابد من كونها ووجودها – ليجزى كل نفس بما تسعى –.

وإن القلب ليجف. وإن الكيان ليرتجف وهو يتصور – مجرد تصور – ذلك المشهد.. موسى عليه السلام فريد في تلك الفلاة والليل دامس والظلام شامل والصمت مخيم. وهو ذاهب ليلتمس النار التي آنسها من جانب الطور. ثم إذا الوجود كله من حوله يتجاوب بذلك النداء ﴿ **إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ** ﴾ [طه: ١٢، ١٣]. إن تلك الذرة الصغيرة الضعيفة المحدودة تواجه الجلال المطلق الذي لا تدركه الأبصار. الجلال الذي تتضاءل في ظله الأرض والسموات. ويتلقى.. يتلقى ذلك النداء العلوي بالكيان البشري. فكيف؟ فكيف لولا لطف الله؟! إنها لحظة ترتفع فيها البشرية كلها وتكبر ممثلة في موسى عليه السلام. فبحسب الكيان البشري أن يطيق التلقي من ذلك الفيض لحظة. وبحسب البشرية أن يكون فيها الاستعداد لمثل هذا الإتصال.. على نحو من الإنحناء.. كيف؟ لا ندري كيف.. فالعقل البشري ليس هنا ليدرك وإنما قصاراه أن يقف مبهوتًا يشهد ويؤمن[1].

يا رب رضاك خير من الدنيا وما فيها	**يا مالك النفس قاصيها ودانيها**
فليس للنفس آمال تحققها	**سوى رضاك فذا أقصى أمانيها**
فنظرة منك يا سؤلي ويا أملي	**خير لدي من الدنيا وما فيها**

﴿ **وَأَنَا اخْتَرْتُكَ** ﴾ فيالتكريم أن يكون الله بذاته هو الذي يختار. يختار عبداً من العبيد. هو فرد من جموع الجموع. تعيش على كوكب من الكواكب. هو ذرة في مجموعة. هي ذرة في المجرة التي هي ذرة في الكون الكبير. الذي قال له الله: كن فكان! ولكنها رعاية الله بهذا المخلوق وكذلك. «ولتصنع على عيني» وكيف يصف لسان بشري. خلقا يصنع على عين الله؟ إن قصاري أي بشر أن يتأمله ويتملاه.. وإنها

(١) الظلال.

منزلة وكرامة أن ينال الإنسان لحظة من العناية فكيف بمن يُصنع على عين الله. إنه بسبب هذا أطاق موسى أن يتلقى ذلك العنصر العلوى الذى تلقاه(١).

ثم سأله ربه مخاطبًا ومؤانسًا ومبينًا له أنه القادر على كل شيء. الذى يقول للشيء كن فيكون ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: ١٧] فلما قال هى عصاى أمره بإلقائها ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [طه: ٢٠] وهذا خارق عظيم وبرهان ساطع على أن الذى يكلمه هو الذى يقول للشيء كن فيكون.. ووصف ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [القصص: ٣١] أى قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة. وهى مع ذلك فى سرعة الجان فلا يقابلها شجر ولا حجر إلا إلتقمته. ففر هاربًا منها لا يلتفت. فناداه ربه قائلاً ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴾ [طه: ٢١] فامسك بلسانها وقيل بذيلها فعادت كما كانت عصى ذات شعبتين.

وقد سأله رب العالمين عما فى يمينه ليقرر ما يعلمه من شأنها. وذلك ليريه منها ما لا يعلمه من شأنها. فلما قرر أنها عصا ميته لا حراك فيها ولا عمل لها إلا ما استعملها فيه. أمره أن يلقيها ليريه منها ما لا يعلمه هو من شأنها. فألقاها فإذا هى حية تسعى. وتسرى الحياة فى كل ذرة من ذرات بدنها. ثم أمره أن يأخذها. فإذا هى عصا ميتة بقدرة المحى المميت وذلك حتى يعلم ويطمئن أنه فى معية المحى المميت الذى حول العصا الميتة إلى حية تسعى. ثم حول تلك الحية إلى عصا ميتة. وذلك حتى يطمئن ولا يخاف من فرعون الذى يدعى أنه يحى ويميت. لأنه يدعى ذلك كذبًا. أما موسى عليه السلام ففى معية المحى المميت بحق.

- **موسى عليه السلام وفرعون:**

ثم أمر الله تعالى موسى بقوله: ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

---

(١) الظلال.

وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ [طه: ٤٣ - ٤٧] وهذا حلمه تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره. وهو إذ ذاك أردى خلقه. ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعواه إليه بالتى هى أحسن وبرفق ولين. ويعاملاه بالطف معاملة رجاء أن يتذكر أو يخشى.

فأتيا فرعون وقالا له: إنا رسول رب العالمين. وبلغاه ما أرسلا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له. وأن يفك أسارى بنى إسرائيل من قبضته وقهره ويتركهم يعبدون ربهم ويتفرغون لتوحيده. فتكبر ونظر إلى موسى عليه السلام بعين الازدراء والتنقص قائلاً له: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [الشعراء: ١٨ - ٢٠] أى قبل أن ينزل الوحى علىّ.

ثم سأله عن ربه. فأجابه أنه خالق كل شىء. وهادى كل شىء لمهمته ورازق كل شىء. ورافع السماء. وباسط الأرض إلى نهاية دلائل قدرته تعالى ولكنه فى نهاية المطاف تكبر وأبى. وطلب منه معجزة تدل على صدقه فى الإبلاغ عن الله. فالقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين. ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين. فضحك فرعون وظن أن ذلك نوع من السحر والدجل الذى برع فيه كهنته وسحرته. وتوعده أن يواجهه بمن هم أمهر منه ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه: ٥٦ - ٥٩].

أى قال: إن هذا الذى جئت به سحر ونحن نعارضك ونتحداك بمثله ثم طلب إلى موسى أن يواعده إلى وقت معلوم. فاختار وقت العيد وفى وضح النهار وأمام جميع الناس. وأرسل فرعون فى المدائن حاشرين يأتون بكل سحار عليم. حتى إذا اجتمعوا عنده قالوا له: أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين؟ قال: نعم وإنكم لمن المقربين. أى وعدهم بالمال والسلطان إن هم انتصروا على موسى عليه السلام: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ * قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم

بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ * قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾ [طه: ٦٠ – ٦٤]. وحضر الناس – الشعب – بأكمله ليشهدوا هذا الموقف العظيم وخرجوا وهم يقولون ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٠].

وهيهات!. كذبت والله الظنون وأخطأت الآراء. فكيف يعارض السحر والبهتان خوارق العادات والمعجزات التى أجراها الديان على يدى عبده الكليم ورسوله الكريم عليه السلام.

فقالوا لموسى قول الواثق من صنعته المتقن لحرفته: إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى. قال بل ألقوا. فألقوا حبالهم وعصيهم ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤]. فإذا بها تتحرك فى عيون الناس ومتحولة إلى حيات وثعابين تتلوى ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦] وحتى موسى عليه السلام خيل إليه من سحرهم أنها تسعى. فخاف موسى على الناس. أن يفتنوا بسحرهم ومحالهم قبل أن يلقى ما فى يده. وخاف إن هو ألقاها تحولت إلى حية واحدة تغيب وسط آلاف الحيات التى سحروا بها أعين الناس فيكون الظهور والغلبة لهم. فأوحى الله تعالى إليه ﴿ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٨، ٦٩] فالقى وهو يقول: ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: ٨١ – ٨٢].

والمعروف أن الساحر لا يسحر. فهو يتلاعب بعيون الناس ولكنه لا يستطيع أن يغير طبيعة الأشياء. فهو يرى عصيانه وحباله وعصى وحبال باقى السحرة كما هى. ولكن ما أن ألقى موسى عليه السلام عصاه حتى تحولت إلى حية حقيقية تسرى الحياة

فى كل ذرة من ذرات بدنها وتتحرك بسرعة الجان ثم اقبلت على ما القوه من الحبال والعصى وجعلت تلقفه وتبتلعه واحداً بعد الآخر فى أسرع ما يكون من الحركة.. والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها. واطلع السحرة على أمر لم يكن فى حسبانهم ولا يدخل تحت قدراتهم فتحققوا بما لديهم من العلم ان هذا ليس بسحر. ولا شعوذة ولا زور ولا بهتان. بل حق لا يقدر عليه إلا الحق. فالقى السحرة ساجدين وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٧ – ١٢٢]. وذلك لأن السحرة هم أقدر الناس على فهم المعجزة التى تختلف كل الإختلاف عن سحرهم.

● **إيمان السحرة:**

فآمنوا وقد كانوا منذ لحظة مأجورين ينتظرون الجزاء من فرعون. ولكن الحق الذى مس قلوبهم قد حولهم تحويلا. لقد كانت هزة رجتهم رجا وخضتهم خضا. ووصلت إلى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم. فأزالت عنها ركام الضلال. وجعلتها صافية حية خاشعة للحق عامرة بالإيمان فى لحظات قصار. فإذا هم يجدون أنفسهم ملقين سجدا بغير إرادة منهم تتحرك ألسنتهم فتنطق بكلمة الإيمان فى نصاعة وبيان. وهكذا انقلب السحرة المأجورون مؤمنين من خيار المؤمنين. على مرأى ومسمع من الجماهير الحاشدة. ومن فرعون وملئه. لا يفكرون فيما يعقب جهرهم بالإيمان فى وجه الطاغية من عواقب ونتائج. ولا يعنيهم ماذا يفعل أو ماذا يقول.

ولابد ان كان لهذا الإنقلاب المفاجىء وقع الصاعقة على فرعون وملاه. وأمام الجماهير الحاشدة التى رأت تلك الهزيمة المدوية والتى اعترف بها السحرة الذين كانوا منذ لحظات من جنود فرعون.. وإنه لانقلاب يتهدد عرش فرعون. إذ يتهدد الأسطورة الدينية التى يقوم عليها هذا العرش أسطورة الألوهية التى يكرسها الكهنة ويؤكدها السحرة. فإذا هى فى غمضة عين سراب أمام الجميع : ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ

إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ * قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ * وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه: ٧١ – ٧٦].

● **خروج موسى ببنى إسرائيل:**

وظل فرعون وأعوانه فى اضطهاد موسى ومن آمن معه. حتى أمر الله تعالى موسى عليه السلام بالخروج. فمضى مهاجراً من مصر. وركب فرعون وملأه طالبا موسى وبنى إسرائيل فى جيش عرمرم حتى أدركهم عند شروق الشمس. وتراءى الجمعان ولم يبق ثم ريب ولا لبس وعاين كل من الفريقين صاحبه. ولم يبق إلا المقاتلة. قال أصحاب موسى: إنا المدركون. وذلك لأنهم اضطروا فى طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد. وفرعون قد لحق بهم. وعاينوه فى جنوده وجيوشه. وعَدده وُعدده. وهم منه فى غاية الذعر والخوف. فقال موسى عليه السلام: ﴿ **كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴾ [الشعراء: ٦٢] ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بامواجه ويتزايد. وهو يقول: ها هنا أمرت فلما تفاقم الأمر وضاق الحال وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر واقترب فرعون وجنوده. أوحى رب العرش العظيم إلى موسى الكليم ﴿ **أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ** ﴾ [الشعراء: ٦٣] فضربه وهو يقول: «انفلق بإذن الله. فانفلق حتى أصبح قائماً مثل الجبال مكفوفا بقدرة الله. والطريق فى وسطه يابسا حتى جازه وعبره موسى عليه السلام ببنى إسرائيل. فلما جاوزه وخرج آخرهم. وقدمه أول جيش فرعون ورآه فرعون على هذه الحال. هاله هذا المنظر العظيم. ولكنه اظهر لجنوده تجلداً. وحملته نفسه الكافرة وسجيته الفاجرة على أن قال: لقد انفلق البحر من هيبتى

وانحسر لأدرك عبيدى الأبقين من يدى الخارجين على طاعتى وملكى . واقتحم البحر ووراءه جنوده فارتطم عليهم كما كان فلم ينج منهم أحدا !! ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [يونس : ٩٠ – ٩٢] .

* * *

المصــادر

١ – القرآن الكريم.

٢ – تفسير القرآن العظيم – للإمام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير.

٣ – فى ظلال القرآن – فضيلة الأستاذ الشيخ سيد قطب رحمه الله.

٤ – تفسير فضيلة الشيخ الجليل محمد متولى الشعراوى رحمه الله.

٥ – قصص الأنبياء – ابن كثير رحمه الله.

٦ – إغاثة اللهفان – الإمام ابن القيم رحمه الله.

٧ – قصص الأنبياء – الشيخ عبدالوهاب النجار.

٨ – أنبياء الله – الأستاذ أحمد بهجت.

٩ – قصص الأنبياء – فضيلة الشيخ عبدالحميد كشك رحمه الله جـ٤.

١٠ – الجانب العاطفى من الإسلام – فضيلة الشيخ محمد الغزالى رحمه الله.

١١ – تلبيس إبليس – الإمام ابن الجوزى رحمه الله.

١٢ – أوروبا والإسلام – الإمام عبدالحليم محمود رحمه الله.

١٣ – العرب قبل الإسلام – الدكتور محمود عرفه.

١٤ – البطولة فى الشعر العربى – الدكتور شوقى ضيف.

١٥ – معجزة القرآن – فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى رحمه الله.

١٦ – المرأة فى القرآن الكريم – فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى رحمه الله.

١٧ – التبرج – الأستاذة نعمت صدقى.

* * *

الفهرس

الموضــــوع	الصفحة

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٦٧٧ / ٢٠٠٥
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-17-2002-3